مُحمد عَبد النبي

وَردةُ الخَونة

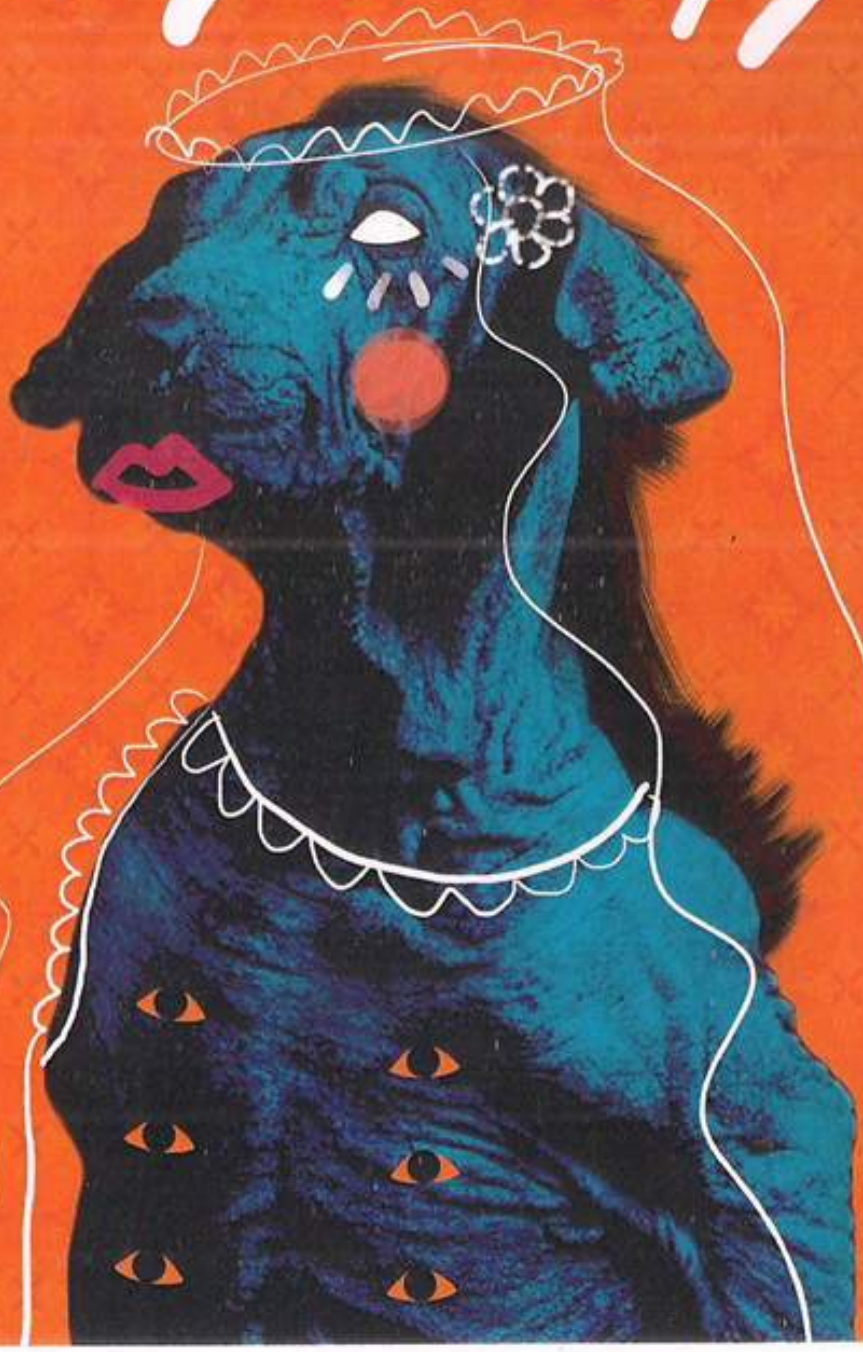

قصص

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

الربيع العربي
للنشر والتوزيع

وردة للخونة

محمد عبد النبي

إلى لحظة كتابة هذه الحكايات،

الأيام والأماكن والرفقة.

الشتاء

الماضي كذبتُ على جميع أصحابي، حتى أكثرهم صدقًا معي، أو مَن أظنهم كذلك، فقد رويتُ عليهم تفاصيل قصة حبي الشجيَّة، والتي لم يكن لها وجود من الأصل.

لمَّا اختنقتُ من حكاياتهم العاطفية، يصبّونها على رأسي ليلَ نهار، دون أن يكون لديَّ ما أخبرهم به في هذا الشأن، قررتُ أن أستغل مواهبي القديمة كطفلٍ اشتهر باختلاق الأكاذيب وإحكامها، فنسجتُ لهم حكاية من التي تُوجع القلب. انتظرتُ حتى سهرة ليلة رأس السنة لأبدأ سرد وقائع الحب الخرافي، وقد اجتمعنا كالعادة في بيت أحدنا واشتركنا في شراء لوازم الليلة.

تهيأ الجو إذن لاستقبال اعترافي، الذي لا بُد لم ينفلت مِني إلا تحت وطأة الألفة والدفء، رغم برودة الجو، وأغانينا المترنحة وطعم البيرة اللاذع اللذيذ:

[تعرفون أن معهدنا اتضح أنه آيل للسقوط، وعليه نقلونا إلى معهد آخر في ميدان الحجاز فترة مسائية، هكذا مرة واحدة من المطرية إلى مصر الجديدة، طبعًا صدمة حضارية بالنسبة لجميع الطلبة، لكن المهم أنني خرجت بتجربة حب حقيقية، كنتُ في انتظارها من زمان...]

ومن ثَمَّ تشتبك الحكاية بأمور لا أحد يساوره الشك بشأنها أبدًا، هكذا اعتدنا، نحن الكَذَبة، خلط الأوراق ببراعة الحُواة، فنُكسِب وقائع التاريخ مثلًا خفّة الأطياف، ونُلبس الأساطير ثوبَ الأخبار في جريدة يومية. توقفتُ عن الكلام لبعض الوقت وأنا أبالغ في مزمزة الترمس، والكل ساكت، حتى سألني "س. ع." - الشاعر الذي

لا تنتهي مشاريع حياته الخسرانة - كيف عرفتها، استأنفتُ وقد ملكتُ زمام السهرة:

[قابلتها يا سيدي في الترام الذي آخذه للمعهد، كنتُ جالسًا أطالع ديوان "لماذا تركتَ الحصان وحيدًا" عندما لاحظتُ أنها تنظر نحوي باهتمام، ثم طلبتْ أن تلقي نظرةً على الكتاب، قالت إنه الديوان الوحيد الذي لم تقرأه بعد لدرويش، فقلتُ طبيعي لأنه صدرَ حديثًا جدًّا، وقالت إنها مغرمة به بالوراثة عن أمها الصحافية في (نصف الدنيا)، وقلت إنني مُغرم به بالزمالة لأن لي محاولات في الشِعر وأمي لا تفك الخط أساسًا... وهكذا يا عيال تدفق بيننا الكلام سلسًا وعذبًا، كأننا اثنين من أبناء بلدة واحدة جمعتهما صدفة حلوة في قلب الغُربة...].

التقطوا الطُّعم، وكان سهلًا أن ترى الغيظ والحسد في عيونهم، إمعانًا في إذلالهم شرعتُ أرسم لها صورة شبه أسطورية بخطوات مُعدَّة سلفًا:

1. جعلتُها قبطية الدين، فُيولد الحب محكومًا عليه بالموت من أول لحظة، ولأن تراث المسيحية ملآن بالرموز التي قُتلَت استدعاءً في نصوص أصحابي الرهيبة.
2. وضعتُها في طبقةٍ مرتاحة جدًّا، لتكون فوق المشكلات المادية الصغيرة، التي تثقل أيامنا نحن الفقراء، وليمتزج جمالها الحسّي بهشاشة وَسَطها القاسي أو كما يقولون.
3. لم أصفها وصفًا دقيقًا قط، مُكتفيًا بملاحظات عابرة عن لون عينيها الغامض بين الزُّرقة والبنفسج والذهبي، وعن فوضى شعرها الدائمة، وقدها النحيل، ليكملَ كل واحد منهم الصورة بخياله الشخصي.
4. ثم اخترتُ لها اسمًا نادرًا وهو إيزيس، ما يستدعي الإلهة

المصرية القديمة بكل دلالات الخصوبة والبَعْث وخلافه.

[وهكذا يا بؤساء، فإنه بالطابق الرابع من عمارة في شارع منصور تسكن الربة "المودرن"، إيزيس، تلك التي سلبتْ مني العقل والحواس يومَ استعارت ديوانَ "... الحصان وحيدًا"].

سعدتُ بإتمام الفصل الأول، وظللتُ أنسج التفاصيل كلما التقينا على المقهى أو في أحد المنتديات الفظيعة، وأحيانًا أنسى الموضوع كله حتى يذكّرني واحدٌ منهم بسؤال عن أخبار الحب الأوّل، فأجيبه متظاهرًا بنشوة بلهاء: آه، إيزيس. وفي الحال أتصيَّد الكلمات من الهواء، مرتجلًا مائة في المائة:

[ذهبتُ معها أولَ أمس لزيارة عمتها العجوز، بقصرها المنيف وشبه المهدَّم نواحي دير الملاك، ست وحدانية وساحرة، لها ضحكة مخبولة وبصَّات مُخيفة. مثقفة ثقافة فرنسية رفيعة، وتكتب شعرًا بالعربية موزونًا في غاية النعومة، وما زالتْ تتحسّر على أيام مجدهم الإقطاعي الغابر. على أي حال فقد باركتْ علاقة حفيدتها بواحد من أبناء الشعب، وعندما عرفت اهتمامي بالشِعر أهدتني نسخة نادرة من الأعمال الكاملة لإبراهيم ناجي، لن تصدّقوا، على الصفحة الأولى إهداء إليها منه شخصيًّا، بخط رقعة رشيق وقلم حبر أزرق مكتوب: إلى الآنسة المهذبة "إسكندرة" مع خالص المودة...].

وتتوالد الأكاذيب، دون أن يعترض أحد أو يتساءل هل حقًّا طُبعَت الأعمال الكاملة لإبراهيم ناجي قبل وفاته. وقبل أن يتسرَّب الملل إلى الحكاية، تقول لهم إن إيزيس يا جماعة بدأت تكتب خواطر مضطربة قليلًا، لكن فيها روح حُلوة، مما اضطرك لاختلاق عدد لا بأس به من القصائد الساذجة، مُستلهمًا روحًا رسمتَ ملامحها في خيالك من قبل، ثم طلبتَ من الصحاب

المهووسين أن يكتبوا تعليقات على أعمالها فلبّوا بزهوٍ أخرق، حتى تكوّم لديك ما أسميته فيما بعد (ملف إيزيس):

أ. قصيدة "صليب على الجبين" ومعها قراءة الرمز في قصيدة "صليب...".

ب. ديوان "لماذا تركتَ..." بعد أن أعادته وقد تركت في صفحة 77 بنفسجة جافة.

هـ. الرسائل الملهوفة التي بعثتْ الريّة بها إليَّ من أماكن ومصايف، سافرت إليها مع الأسرة الكريمة.

و. أعمال ناجي وعليها الإهداء المزوّر للآنسة إسكندرة التي لم توجد في أي زمن أو مكان.

ودون إرادتي كانت الأباطيل تُصمّم عالمًا متكاملًا، لعلّه أصبح لفترة أكثر قوةً وحضورًا من حياتي العادية بطولها وعرضها. لكني مللتُ الحكاية تدريجيًّا وتهرّبت من إلحاحهم عليَّ بمقابلتها بكل الوسائل، إلى أن استيقظتُ ذات صباح وقد عقدتُ العزم على كتابة كلمة النهاية. ولأجعلهم يتخبطون أكثر رسمتُ لكلٍّ منهم مظهرًا للفراق يناسب مزاجه.

فلما سألني (ج. ف.)، مجنون السينما وكاتب السيناريو عاثر الحظ، عن سبب قطع العلاقة، رحتُ أصف له مشهدًا شفيفًا، بالضبط مثل نهاية فيلم فرنسي لمخرجي الموجة الجديدة:

إكان ذلك في عيد الميلاد المجيد، كنا نجري تحت المطر ونحن نتصايح كالأطفال والدنيا ليل، علّقتُ السلسلة الفضّية التي أهديتُها إيّاها في رقبتها فقبّلتني، المجنونة، بسرعة. كانوا، هُم، ينتظرونها في الكنيسة وبعد أن اختفت وراء الأسوار العالية، خيَّم عليَّ شعور حاد بعبث كل هذا، وأنني لا بدّ أن أجنّبها وأجنب

نفسي عواقب تطور علاقتنا أكثر من هذا. كنتُ أمشي تحت المطر هائمًا لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم، يُطفئ المطر سيجارتي مرة بعد أخرى. وقد قررتُ أن أتركها للأبد...].

ومع شيوعي سيخ مثل (أ. ع.) سيكون مبرري، بيني وبينه بالطبع، ذلك التناقض الصارخ بين عالمي وعالمها، وكلام من نوع:

[طوال الوقت كنت أصطدم بمفردات حياتها الغريبة عني. فمهما كانت فورة مشاعرنا، الفوارق هناك دائمًا وأبدًا، لا الثقافة ولا الحب يُلغيها بأي شكل، فإذا دخلنا مثلًا مطعمًا محترمًا لم أكن أسلم من التلعثم وأنا أطلب، ومن التخبّط وأنا أتناول الطعام بأدوات المائدة التي تجعل الأكل مسألة تعذيب، نعم، كانت هي تتفادى هذه المواقف على نحو لا يُشعرني بأي حرج، وهو ما كان يغيظني أكثر... ويُحمّلني باغترابٍ مُضاعف حتى تركتها للأبد...].

نعم، (أن أتركها للأبد)، العبارة التي تكررت في كل النهايات، إذ كيف يتسنّى لأيٍّ واحدة أن تتركني، حتى ولو كانت ربة مصر الجديدة إيزيس؟ تلاشت البنت تدريجيًّا وارتحت، لكنها كانت تطل عليّ، بين الحين والآخر، بابتسامتها الماكرة، فأتذكر كلمة قالتها أو لحظة حميمة أو موعدًا مغدورًا، فأعود أتصفح الملف الخاص بها مُفعمًا بالحنين وخيبة الأمل، لذا لا تظنوني كاذبًا إذا قلتُ لكم:

[إنّ الأمر المضحك، حتى بعد اعترافي بأكذوبتي، هو أنني كلما مررتُ بالشارع الذي تسكنه، أشعر بعينيها تتابعاني من فوق، من شرفتها العالية، فيداهمني يقينٌ مدهش أنها ستنادي عليّ بعلو حسّها، ثم تنزل في لمح البصر، لتصالحني بقُبلة، المجنونة، هكذا في عَرض الطريق وفي عز الظهر، لنستكملَ من جديد قصة الحب الفريدة...].

أكتوبر 1997

الأميرة التي
كرهت

ما بين النوم واليقظة مدَّ ذراعه ناحيتها، لكنه لم يحس دفء جسدها بموضعها من الفراش فتنبَّه وفتح عينيه، نهض وخرج إلى الصالة وكان طعمُ الفقدان في ريقه مرًّا كلّ المرارة، كأنه يبحث عنها في أحد كوابيسه، يناديها بين الممرات التي لا تنتهي. كل شيء في مكانه، من ركن صورة الجيوكندا تنبعث إضاءة خافتة أكّدت له الإحساس بالحلم، غالبه وأضاء المكان.

طقم الصالون العتيق رابض في العتمة، ورثته هي عن جدتها التركية، تعتز به رغم ضياع رونقه وزمنه، كثيرًا ما طالبها بالتخلّص منه، يسمّى مقاعده أشباح العصور الوسطى، ترد عليه بأنه لا يفهم في التحف والأنتيكات؛ طبعًا بسبب أصولك الريفية الغلبانة يا أسامة يا روح قلبي.

زهور البنفسج، بفضل الماء والسكر، تفتّحت أكثر لتطل من قلبها براعم صغيرة منورة، ومن فوقها كانت أميرته تبتسم من بورتريه بقلم الفحم، مرسوم بخفةٍ وفرح، أنجزه زميلهما في المجلة، بعد إلحاح دامَ شهورًا، "والنبي يا نُهى، خمس دقايق بس، آخُد فيهم بصّة العفرتة دي وبعدين خلاص"، وحدثَ أن وهبته نظرتها ثلاث دقائق بالتمام، تنهَّد بعدها مرتاحًا وقال "خلاص"؛ نظرتها نفسها التي دفعت بالكثيرين إلى الهوس الحقيقي: مثل ثلاثة مراهقين توائم أحبوها معًا بالمدرسة الخاصة، وأهملتهم لكي لا تفسد أخوّتهم كما نصحتها المربية السودانية، حاولوا الانتحار معًا وفشلوا معًا أيضًا، وزارتهم بالمستشفى مع أمّها تحمل إليهم الورد والكَمَد.

في الكلية هوست النظرة نفسها حوالي ستة عشر مسكينًا، لم

يحاول أحدهم الانتحار، لجأ البعض إلى المغيّبات والكتابة واحتموا بصدور الأخريات في محاولات بائسة لنسيانها، المؤكد أن ساعات حميمة فُقدَت لمَّا نطق باسمها الخائبون في آذان الأخريات.

أشعلَ سيجارة واستقر في الشرفة، لم يشعر بالنسمة الحلوة التي مسّته، لم يرَ القمر ولا الكلاب الهائمة، يدركُ الآن بهدوء ودون دهشة أنها بعيدة، أبعد من أن يفوز بنظرة شيطنة واحدة من عينيها، لأنها، الأميرة التي أرسلها الله إليَّ من ملكوت السماء، قد ماتت منذ أسبوعين تقريبًا في حجرة عادية بالمستشفى الإيطالي بعد محاولة فاشلة لاستئصال ورم غير حميد.

زمان، أوّل ما شافها دبَّت بينهما خناقة لرب السما، اقترحتْ في اجتماع المحررين حملة خاصة عن العنف داخل الأسرة وكيف أن المرأة المصرية تتعرض للذل والهوان على يد سي السيد، قام على حيله قائلًا لها من المؤكد أن هذه المرأة ليست أنتِ ولا أي واحدة تجلس هنا، وأن الرجال أيضًا يتعرضون للذل والهوان في عالمنا الرخيص، لكن الحل لا يكون بإشعال الحرب الوهمية بين الجنسين، بل على العالم الذي يؤسس للعُنف والقمع، وهكذا، كلام... كان لا يزال مأخوذًا بلون شعرها الأحمر المدهش، كرهت هي شاربه وإن أعجبها نطقه للراء ياءً خفيفة بشكل لذيذ.

كان يؤمن وكانت تؤمن ودبَّت بينهما خناقة لرب السما، لكنهما اكتشفا معًا مذهبًا أكثر بدائية وإقناعًا، بعد مطاردات شبه بوليسية في غرف المجلة وشوارع القاهرة، اكتشفا الحب.

لكأنه ما زال ناعسًا بجوار فراشها في المستشفى، يتابع احتضارها ويكذِّب الهواجس، توقظه عند الفجر صلاة الراهبات بالدور الأرضي، تنبعث أصواتهنّ بترانيم الصباح مُهدهدة، لكنها غامضة

وغير مفهومة، تمامًا كالموت. يجمع لها الياسمين قبل أن يُذهب النهار رائحته ويهمس مقبِّلًا جبينها: "صباح الخير سمو الأميرة".

سألته في اليوم الأخير بجدية لم يعتدها منها، عمَّا إذا كان سيرتبط بغيرها بعد أن تموت، ارتبك ولم يرد، قالت إن بإمكانه ألّا يعرف غيرها لو تصوّر فقط أنها ما زالت بجانبه طوال الوقت، وأكّدت أنه ليس عليه إلا المحاولة وسيجدها فعلًا بالقرب منه، لم يفهمها، أسعفته لباقته أخيرًا فقال باسمًا: متخافيش يا فندم، لإنه مافيش إنسانة ممكن تحل محل البرنسيس نُهى كارم.

ساعتها لم يكن يعرف أنه سوف يتجاوب، بعد حوالي شهرين ونصف من وفاتها، مع صديقتها المطلّقة ثُريا، وسيتركها بسبب أوهامها الرومانتيكية الزائدة عن اللازم، وعادتها في البكاء الحار خلال ممارسة الجنس. لم يكن يعرف أنه سيتردد على مدام سهير، مُشرفة باب المرأة، من ثلاث لخمس مرات شهريًّا، أو حسب سفريات زوجها، وستملّ منه فجأة وتطلب أن يعتبر ما كان بينهما خطأ لن يتكرر. لم يكن يعرف أنه سيلتقط حُسنَى ربيبة الزاوية الحمراء وطويلة اليد واللسان، وعفاف التي ترفض الفلوس وتأخذ حقها أكل وشرب وبيات، ثم هُدى التي .... و.. لم يكن يعرف، لم يكن يعرف.

حينما عاد بعد ظهر اليوم الأخير للمستشفى أعلمته الأخت الراهبة في جلال أن الرب قد استرد وديعته منذ دقائق، ألقى نظرة عجلى على وجه نُهى الذي ذكَّره بوصيتها الغامضة، انهار في ركن وبكى مُخفيًا وجهه بين كفيه.

وحيدًا يطلع عليه النهار في الشرفة، ووحيدًا يحاول أن ينام من جديد، وفي الممرات المعتمة لأحلامه يناديها، نهى، لتأتيه واضحة الملامح وصافية القسمات، وشعلة النار الدافئة تكلل

جبينها، تحادثا طويلًا عن كل شيء، رداءة الفيلم الأخير للمخرج المجنون، المؤتمر الرابع للحزب الذي أصبح وجوده كوميديًّا، تحدثا عن الأغنيات وحالة الجو والصحاب، ثم صنعا الحب كما اعتادا أن يفعلاه دائمًا وبنفس التفاصيل، قبَّلها في أماكن تدغدغها لتضحك وتضحك حتى تدمع، رقص وهو يشيلها فوق صدره بينما تشبك قدميها وراء ظهره، ناولته سيجارة ودخّنت معه، شكى لها وحدته من بعدها، لكنها واسته وعاونته على احتمال موتها، وقبل أن تذهب نبّهت عليه ألا ينسى البنفسج وأسماك الزينة، وأن يغسل حجر الفلتر بالماء والملح من وقتٍ لآخر ويجدّد اشتراك بعض الإصدارات المهمة، ورجاء أخير، لو تقدر يعني، تقرأ الكم صفحة الأخيرة من رواية "صخرة طانيوس" لأني سأموت بجد لو لم أعرف ما الذي حدثَ للولد بطلها، ثم ودعته بقُبلة طويلة قبل أن يصحو والوقت ضُحى.

كان بإمكانهما هكذا أن يتحايلا على الموت، وللأبد، بألاعيبهما الخرافية، والتي أضحتْ لكلٍ منهما أصدق ما في الكون من وقائع. سرعانَ ما تبيَّن أن الوهم قد جذبه لأبعد مما يتصور، وأنه يعيش من أجلها بعد أن راحت أكثر مما فعل وهي موجودة، حاول أن يتمسك بإشارات وصيتها عبثًا، أعادّ التعرّف على الأميرة من خلال يومياتها، اكتشف أنها رومانسية بتطرف، بعكس ما كانت تُبدي، وأن خطها ليس سيئًا، بل منمنمًا ولطيفًا، اهتم بكل أشيائها؛ العصافير وأسماك الزينة وطبعًا البنفسج تحت عينيها، راح يستمع لأغنيات وردة وفايزة أحمد ونجاة، يقرأ كتبها، يتشمم ملابسها، يناديها في متاهات نومه المعتمة، وأدركَ أنه يستعين على وحدته بكل ما يؤكد هذه الوحدة وأن الجسم لا تنفع معه هذه الأكاذيب، فقال إنها في الروح مزروعة، لكن الجسم له جوعه الكافر، العلاقات العابرة لا تترك أثرًا في الواحد وتذهب ذكراها

مع ماء الدش، ومن المؤكد أنه لا أحد يستطيع أن يحل محل الأميرة التي لم تمت.

غاب طيفها عن زيارة أسامة ولم يهتم، ذبلَ البنفسج ولم يجدده، نسي إطعام السمك فطفى على سطح الماء هامدًا، ثم دعته صديقتها للعشاء بحجة أن لديها رسائل وصورًا خاصة بالمرحومة، من حقّه أن يطّلع عليها.

وتحت وطأة عينيها المعفرتين من بورتريه رسمه زميل لحوح، أضمر ألا يذهب ولم يبحث عن حجة أو عذر. استحم وحلق ذقنه وهذّب شاربه، تعطّر وارتدى القميص الحريري الأبيض ووضع الكوفية الحمراء، جلس ينتظر اقتراب الموعد ممددًا على أحد أشباح القرون الوسطى، مال رأسه في غفوة للحظة، لتأتيه مرة أخيرة، وهي عابسة ومضطربة.

صاحب صوتها ضجيج شديد؛ ترانيم صباحية لراهبات، أغنيات متداخلة لوردة وفايزة ونجاة، نداءات لباعة الجرائد والمجلات، وهتافات... هتافات... هتافات، طبول عسكرية تدق... تدق... تدق في إيقاعٍ رتيب ومنذر.

حرّكت الأميرة شفتيها، قالت شيئًا ما، لكن فارسها، وفي قلب هذا الصخب، لم يفهم ما قالت.

انتبه وقد تبقى على موعده القليل فأسرعَ، أغلق الباب وراءه بقوة، نزل السلالم بهمة عالية بينما ينصت لصوتٍ ضعيف يردد في داخله أن الحياة أرحب بكثير من الموت، وأن الحي، دون شك، أبقى من الميت.

يونيو 1997

للخيول

مآقٍ حزينة وصهيلٌ جارح، أو هكذا يراها علاء الذي باع عَجلته من أسبوع، وأمام بيتهم إسطبل تستريح به عربات الكارو بعد مشاوير النهار وتبيتُ فيه الخيول. هو الآن يقفُ ضجرًا تحت مظلة المحطة، ليس معتادًا على الذهاب إلى أخته الكبيرة بالأتوبيس، كان يأخذ العَجلة؛ أو الأصح تأخذه العجلة. لم يركب إلا عندما تأكد أن العربة ليست مزدحمة؛ خوفًا على العروسة الحلاوة. أسماء ستفرح جدًّا وتبوس خالها ولن تشعر بأي اختلاف، ربما أجابوها عندما سألت بأن "جدو راح عند ربنا في السما"، وخلاص. لكنّ علاء يعرفُ الآن الموت كما يعرفه الكبار، لا يبكي ولا ترتعش ركبتاه، يجلسُ مع الرجال ويشدّون على يده ليشد هو حيله. وقال لأصحابه إنه باع العجلة لأنه كبر عليها وربما يشتري واحدة أكبر، لكنه نائب عن روح أبيه الآن، ولا بدّ أن يدخل على أخواته البنات في الموسم دون أن يأخذ نقودًا من أمه، وإلا فما الفرق؟ ويبيع العجلة، وينُصت إلى التلاوة لعله يُرحَم، ولا يبكي والبقاء لله. ويشتري حلوي مولد النبي والعرائس والأحصنة التي لا تصهل ولا ترجع متعبة آخر النهار ولا يحجّ إلى جراحها الذباب حتى تموت من الغيظ. قالت " يعيدها عليك الأيام بخير، تعيش وتجيب يا أستاذ"، وارتاب من سخرية بعيدة في صوتها فشكرها مغمغمًا وردَّ خلفه البوابة الثقيلة بحرص وهو يحمل العلب والهدايا.

وكانت قد سألته سابقًا، وهي تكتم ضحكتها فيما تنشر الغسيل

" انت حلقت دقنك بحتة قزاز ولا إيه؟"، فأجاب جادًّا " لا والله، حلقت بماكنة عادية، ليه؟"، فتضحك هي " لا أبدًا، بس عوّرت نفسك يا أستاذ علاء". مُطلقة صغيرة وبدينة، وصدر جلبابها مبلول وشعرها ساقط على وجهها، وتُفسد رغبته في التسامي على نوازع جسده لأنه دائمًا ما يُستثار جدًّا عندما يراها أو يسمع صوت ضحكتها من بعيد، رغم ملبسها وكلامها وخمسة أو ستة أعوام بينهما. وروائح الإسطبل كثيفة ومقرفة، لكنها لا تضايقه فهو يحب الخيل جدًّا، بالذات التي تجر عربات الكارو، الأحصنة البلدية التي لا يهتم بها أحد. لكنّ نبي الله سليمان لامَ نفسَه عندما أخذه تأمُّل الصافنات الجياد بعيدًا وأنساه ذكر الله، وعلاء يريد أن يتعلّم كيف يري الله في كل شيء من حوله، حتى صهيل الخيول التي جرحتها مشاوير الشمس والأحمال الثقيلة.

والذباب يتساقط ميتًا في أرضية الشرفة الصغيرة، وأحجار الحرّ ترزح على نفسه، وقد تمددتْ أمّه أمام العتبة وفتحت باب الشقة قليلًا، وبلّلت ثوبها الأسود بالماء خفيفًا، ورشرشتْ وجهها وشعر رأسها وراحت تحدّث الفلاحة المحبوسة والمنسيّة في داخلها: " أهو الجو ده بالذات لو طوّل يموّت الزرع، الدنيا تبقي زامتة وبتندّع مطر سُخن كمان، يا ستّار يا رب". سمعَ علاء صوتها فوضع الكتاب بجانبه، وعرف أنه سيسأل نفسه ذات صيف آخر كم ولدٍ تمنى، مثله، أن يصبح فيلسوفًا إسلاميًّا مثل مصطفى محمود، أو مُطربًا أو ضابطًا كالمعتاد. كم ولدٍ ظلّ يُصعّد طائرته الورقية في سماء الله حتى منتصف الليل. كم ولدٍ تسابقَ في نهار العيد مع الريح على عجلته العروسة والبُمب يُفرقع من حوله. ثم كم واحدٍ منهم أكلته المواسم وكلمات العزاء ونوازع جسمه

الكافرة، فضحكَ من نفسه وهو يرتب ملفّات الصادر والوارد، أو أمام ماكينة لحام، أو في مشاوير الدعاية والإعلان التي لا تنتهي.

ثمّ تسلّل معها إلى الإسطبل في عز الليل، بينما يذكر الآخرون اللهَ في ليلةٍ نصبها والدها على العادة. على ضوء لمبة جاز صغيرة راحَ يتأمل المهرة البيضاء المولودة منذ أيام، خطفه الجمال للحظات، وربما قال: نحن أكثر بؤسًا من الحيوانات، فتشدّه إليها، المطلقة التي ملّت استدعاء نجوم السينما والتليفزيون كلّ ليلة. أكثر بؤسًا من الحيوانات، لأن جلودنا غير مُغطاة بشعرٍ كثيف أو بريشٍ مصفوف وخشن، ولا جلودنا غليظة فنحتمل عندها البرد والمهانة والكلام الرديء. وخيالات الرجال التي لا تقضي وطرًا، وقسوة الأهل على التي عادتْ لهم بعد زواجها بأشهر لمجرد أن زوجها بخيل وأمه شرّانية وأخواته يعملن لها أعمال السحر. جلودنا للأسف ناعمة وحد الموس الذي نستخدمه لأوّل مرة ما أن يلمسنا حتى ترتطم قطرات الدم اللزجة ببياض الحوض. تريدُ الآنَ واحدًا حقيقيًّا، حتى ولو كان نصف طفل نصف رجل ويكاد يقتل نفسه إذ يحلق ذقنه لأوّل مرة، لا بأس: هذه جروحٌ صغيرة وسوف تلتئم بأسرع مما نظن، ثم ننساها للأبد.

وإذ يرفع رأسه قليلًا فوق الشرفة وفوق المواسم رأى أباه ما زال واقفًا أمام البيت، معهم، فقال الذي أنهكته المشاوير أعرفُ ذلك الصيف، ليس بعيدًا جدًّا. علاء عيّل صغير يستند على وسادة وهو يقضم البطيخ الهشّ في ظل هيكل أبيه فوق رأسه واقفًا صامتًا، ثم وكأنه قد اشتمَّ في قلب هذا القيظ نسمة بنت حلال منفلتة، فراحَ يناديها كمجذوب: تعالي هنا يا حلوة. والعيل الصغير يبتسم من كلام أبيه ويأكل البطيخ، ويسخر معلم

الإسطبل أمام الشيشة والعناب من الرجل اللاسع. لكن النسمة تقترب وتتأكّد، ويرفع أبوه ذراعيه ويهمّ باحتضان شخصٍ غير موجود، فينتفخ طرف جلبابه بالهواء الذي بدأ يتلاعب الآن بكل شيء. يصيح " أيوه كده يا فرّوحة.. فرّحي العيال". فيأخذ الهواء الطائرة الورقية لفوق، تكاد تختفي، وتتطاير صفحات الكتاب الملقى على أرضية الشرفة، وتنهض أمه واقفة وهي تمروح بيدها أمام وجهها لتقول" أيوه يا فرّوحة.. فرّحي الغلابة ".

ويقولون قطّع سيدنا سليمان أوصال الخيل، لأنها شغلته عن ذكر ربه، فعوضه الله خيرًا منها. وعلاء شاهدهم يجزّون شعور الخيل وللفرس البيضاء الصغيرة يرسمون أشكالًا بشَعرها، وبالحنّاء يطبعون دوائر ومثلثات وقلوبًا، ثم يعودون يضربونها ويسوقونها طوال النهار في شوارع الظهيرة، تجرّهم وبضاعتهم، وتجرّ أيضًا جسمها ونوازعه ويمنعون عنها الذكور. وتقف في الشرفة مُبتلة من ماء الغسيل وتضحك فيشد الولد الذي صار كبيرًا طرف الدوبارة ويضم إليه طائرته لتعود إليه، نجمة الصبحية، وتتضح وليستْ حلمًا يُوقظه منه وجعٌ لذيذ، شاهقًا كمن يموت، ولا يموت. فيجري إلى الماء البارد والصلاة ثم التلاوة، "ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كُرسيه جسدًا ثم أناب"، ويحكي لها في ظلمة الإسطبل عن سليمان، النبي الملك الحكيم الذي خضع له جميع الإنس والجن، فيما تمر بفمها نصف المفتوح على صدره العاري بشُعيراته القليلة وحلمتيه البارزتين مثل حبتَيْ ترمس ناشفتين، يقول كان عليه السلام يريد أن يطوف على سبعين امرأة من نسائه، في ليلةٍ واحدة، لكي تأتي كلُ واحدة منهن بفارسٍ يجاهد في سبيل الله. لكن سائق الميكروباص طلب يدها من يومين وهي تفكر، هو أيضًا

مُطلّق مثلها، من هُنا لهنا يا قلبي لا تحزن، كلها عيشة والسلام. ستترك البيت إذن وتغيب، مثل الطائرة النجمة التي شبكتْ وتمزقت، أو العجلة التي باعها، ألم تكن هنا منذ لحظات؟ بين يديك، تتذوق شفتيها وتعض طرف أذنها، وخصلات شعر عُرفها، وتمزّق السرج وتصهل ولا يعود خيطٌ يشدّها إلينا، وتضحك ولا يهمها إذا قَطّع الحكيمُ أطرافها لكيلا يأخذه جمالها من الله، ولا تنجب نساءه السبعين فارسًا كما تمني، لأنه نسي أن يقول "إن شاء الله"، وكل المواسم تصير واحدًا يتكرّر على الدوام، موسم موت الزرع والذباب والآباء الطوال، لا يعودون يهزّون أطراف جلابيبهم فتشق النسمات الطرية طريقها إلى الدنيا. ولا أحد يعرف حزن الخيل إلا من يعودُ مقتولًا آخر النهار ليأكل وينام، ولا يعود يقرأ عن الفلاسفة والأنبياء ولا يتأمل الخيول المتعبة.

يوليو 2000

كالعادة
صاحبان
وبيت

من يروح جامعة عين شمس فليأخذ باله، هو في أمان ما دام بعيدًا عن مدرج آداب السفلي، وإذا سحبه الفضول إلى هناك فهو حر، ربما لمحَ بنتًا عند الباب الخلفي المغلق دائمًا، تقف في جلباب بيتي وجسد ضئيل وأمامها نار وماء وشاي وقهوة وحليب. نصيحة: لا تقترب أكثر.

-1-

جلس محمود على الأرض مستندًا إلى جدار الردهة. في هذا الركن لا يراه غيرها. لا بدّ فاتته المحاضرة الأولي، سينتظر العيال إذن مع سعدية، لقهوتها طعم البيت وأسعارها رحيمة، لكنها لا تتنازل عن السكر الزيادة وهو يشربها على الريحة، لكيلا تتعبك وأنت نحيف هكذا وممصوص. أشعلَ سيجارة وأخرج من حقيبته كتابًا، يوميات لص، هل يقرأ الآن لجان جينيه أم يقرأ عن جان جينيه؟ يجيب: لا فرق. وهذا ما يريده محمود بالضبط، إلغاء المسافة بين الإنسان والكتابة، يصيح فؤاد من داخل رأسه: لكنّ جان جينيه كتب بعيدًا عن ذاته وممارساته أيضًا، مذكراته ما هي إلا جانب من أعماله، يقول محمود: الجانب الأهم. ضايقه السكّر: يا بنتي، حرام عليك. تضحك من فوق رأسه وهي تشطف الأكواب على الحوض الصغير وترشرش وجهه بأصابعها فيصيبه رذاذٌ خفيف. قال لنفسه: ذقنها مدبب وحاجباها رفيعان جدًّا، كأنها تعملهما بالفتلة كل ليلة، هي، بنت السابعة عشرة، مادا ستقول

لو أخبرتها عن صاحبنا، فؤاد، الذي يلاحظها من بعيد ويسألني عن أخبارها بنهم ويريد أن يكتب عنها قصة، العبيط، يريد أن يحبس سعدية في صفحتين أو ثلاث، سمع صوت فؤاد مرة أخري، أولًا لستُ عبيطًا، ثانيًا الحكايات خيرٌ وأبقي من النصوص المشوّشة التي تشبه هذيان المرضي النفسيين، تعرف عمَّن أتكلم، الحكايات تنظم فوضي هدا العالم، تعيد تشكيل تفاصيله المشتتة، سعيًا وراء المعني المراوغ بين الناس والعيشة، وسعدية مجرد مادة للعب، قطعة صلصال مطاوعة تسمح بصياغتها على الورق حسب أهواء الحكّاء والحكاية، افهم بقى وكفّ عن الأشياء التي تتعاطاها. قام محمود وألقى بعقب السيجارة من نافذة الردهة، ناولها الكوب الفارغ وسألها عن أخبار طارق، ابن عمها، حبيب القلب تالف الأمل، أما زال متخلفًا عن الخدمة العسكرية؟

-2-

لماذا محمود بالذات تأخذ وتعطي معه في الكلام دون خجل؟ وقد عوّدها أبوها من أول يوم تشتغل معه في الكلّية أن تعامل الطلاب بحرص شديد. محمود شكله مثل حالاتها: غلبان وعلى قد حاله ولكن مجنون قليلًا، لا يجري كالآخرين وراء البنات، بل أحيانًا كثيرة يتمسّحن به فلا يهتم، يقول ضاحكا: كله من الكَبت يا سعدية، لا مشاعر حقيقية عندنا ولا يحزنون، جوع وخلاص. لماذا يترك شعره طويلًا هكذا مثل الأجانب؟ يا سلام، لو ألعب بأصابعي في شعره الأسود الناعم، بشرط أن يكون نائمًا فلا يراني ولا يحس بي ثم أتركه وأذهب قبل أن يصحو، أحسن شيء أن

تكون الواحدة مع رجل نائم، فتعمل معه ما تريد دون يقال عنها كذا وكذا، حتى وهي مع طارق، وفي حضنه تمسك نفسها ولا تأخذ راحتها أبدًا، حتي الحب لا يحل مشاكل الجسم، ولا الزواج أيضًا، فأختها الكبيرة تقول إن الأمور تزداد سوءًا، وإن زوجها يصل لنشوته بسرعة ويتركها تموت من الغيظ. يعني لا فائدة يا رب، ولكن لمحمود عيون سوداء وواسعة، ويفهم ما أودّ أن أقول من غير أن أقوله.

مسحتْ كفيها في جلبابها بخفة وأخبرته أنها استطاعت إقناع طارق باللسان والشبشب أن يروح يسلّم نفسه قبل أن يفوت الموعد، وإلّا سترمي له دبلته الفضة التي لا تساوي ثلاثة مليم.

-3-

انتهت المحاضرة. فؤاد يقترب منهما. ردّت سعدية تحيته دون أن تنظر ناحيته، ممكن أشرب؟ ناولته كوب ماء، تركاها واتجها ناحية ممر كلية الحقوق ليقابلا هناك بقية العيال الاشتراكيين، قال فؤاد إنهم يغرقون طوال الوقت في مناقشة تفاصيل غبية، حتى ينسي الواحد ما يريده حقًا، ردد محمود: التفاصيل هي كل شيء في النهاية.

سيكتب فؤاد:

سعدية، أليسَ في هذا الاسم موسيقى ما؟ مثل ماريا أو باتريشيا، المعشوقات القاسيات دومًا في أسمائهن موسيقى. ومثلهنّ تقسو هي على طارق ابن عمها، تتمدد بجانبه في كامل ملابسها وهو عارٍ تقريبًا، في شقة السطوح الخالية إلا من جدران

الطوب الأحمر والبط والفتات والكراكيب، الولد يتعب جدًّا وهي تقوم تضحك في اللحظة الفاصلة لتنفض عن جلبابها التراب وتمشي. تقسو أيضا على محمود فتحكي له كل ذلك بحنان الأخت أو الصاحبة، ذلك الحنان الذي لا يحتمله غير شخص مثله، تتبادل معه النصائح والشتائم والضربات الرقيقة، لكنها لا تقسو عليَّ، لا تعرفني أساسًا، أنا عندها مثل كوب الماء الذي تناولني إياه بعد المحاضرة، مجرد كوب ماء: لا طعم، لا لون، لا رائحة. ولا يضايقني هذا، بل يمنحني شعورًا بالأمان والراحة، فأنا روحٌ شفافة أستطيع أن أحومَ حولها فأرى تشكيل وجهها من كل النواحي، دون أن تقسو عليّ أو أتورط في المحبة، أستطيع أن أكتبها ـ كما أفعل الآن ـ بينما تطعن هي محمود بضحكاتها واعترافاتها الحميمة وتثقل كاهله بأحجار الأخوة، تلك الأحجار التي لا يحتملها غير شخص مثله.

توقف عن الكتابة متسائلًا: مرة أخري محمود فما الذي لديه ولا أعرفه أنا؟ ناهيك عن الشعر الناعم المرسل والعيون الواسعة، لا تضحك على نفسك فتقول إن عدم التفات سعدية لكَ يمنحك شيئًا من الرضا، إنه رضا المقتول عندما يُطعن بعد موته مزيدًا من الطعنات، لقد مات وشبع موتًا، فهي ليست سوى كل من لم يشعروا بك، كل من مررتَ بين أيديهم كأنك روح بلا وزن: لا طعم، لا لون، لا رائحة. ربما ما يميزه عنك هو أنه لا يحب أو يكره بين الأوراق فحسب، مثلما تكتب أنت كل لحظات الحب التي لم تعشها، ترسم كل الوجوه الحلوة التي لم تقترب منك، تنتقم ـ في الحكايات المحبوكة ـ ممن زرعوا فيك الخوف من العالم وعدم الثقة في مشاعر البشر.

يقول فؤاد: الغرباء وحوش لا بدّ من استرضائها، والناس نبلاء ككلمة مجردة في كتاب، لكن كلحم ودم، من الممكن أن يقتلوك لمجرد أنك مررت بهم ومزاجهم غير رائق، وطبعًا خوفك منهم سيضاعف لديهم شهوة إخافتك وهكذا بلا نهاية. على الورق فقط نروضهم، نقول الجمال كامن بهم ينتظر الفرصة، نقول ونزعق ونصرخ ويضحكون أو لا يسمعون، ويمرون بكلامنا ومعرضنا في الممر غير عابئين، كأن الأمر كله لا يخصهم في شيء، لكن لا بأس، فأمثال محمود يستطيعون التماس الأعذار لهم في القمع والإعلام الموجّه وحالة الجزر وخلافه. وأنا أيضًا أروّض الناس على الورق، فأجعلهم يتحابّون ببساطة صيحة كروان، أرسم وجوههم بخطوط واضحة وناعمة، أتكلم عنهم كأني أعرفهم تمام المعرفة، وأجعل الوحوش الشرسة مجرد دمى بلاستيكية غير مؤذية، ولا مفر ـ دائمًا ـ من سيف سعدية الذي يشطرنا اثنين، فلا أحد يمكنه امتلاك الوهم والحقيقة في نفس القبضة.

-4-

كان كاظم الساهر يؤكّد أن حبها أدخله مدن الأحزان، وأنه من قبلها لم يدخل مدن الأحزان، وسعدية تطرز عباءة بالخرز والترتر عندما انطلقت ضحكة كراون مرتجفة، واربتْ شباكهم قليلًا فرأته عند الناصية، الكروان الخائب، طارق. أوقفت الكاسيت وتحججتْ بحجّة لم تدخل على أمها، لكنها على كلٍّ سترجع قبل أبيها، ركبت وراءه الفسبا التي يستعيرها من أحد أصحابه ثم انطلقا.

إذن، يجلس محمود على الأرض في ركن سعدية وراء المدرج كصعلوكٍ صغير، من أسنانه الخربة يعرف الجميع إدمانه للبانجو، نعم البانجو وليس الحشيش، فهو ـ كما يردد ـ من جيل البانجو، فليحيا البانجو، لم يكن هو من اشترى لها مُعلّم القراءة لتردد ألف: أرنب، باء: بطة، بل وربما تضايق جدًّا لما رآها تفعل ذلك، مؤكدًا أن الموجود في الكتب كلام فارغ وأن أساتذة الجامعة عصابة نصّابين، والطلبة لا يفهمون ولا يريدون حتى، وأن الحقيقة بعيدًا عن كل هذا، ولذا يقرران معًا أن يمزقا كتاب القراءة فتافيت صغيرة ويرميان بها لتطير من نافذة الردهة، فتتساقط الحروف والكلمات والطيور والحيوانات مُختلطة على رءوس الناس في الشارع: ثورةٌ خفيفة.

مع سعدية ينفضُ عنه هذيان الليل، ومشاكله مع أبيه، مُصمم تماثيل وأسقف الجص ومدمن المكيفات الكسول، يعمل شهرًا في السنة ولا يؤكلهم بفنه عيشًا، مؤكد محمود يشبه أباه بشكل ما، لو كل الدنيا في بساطة سعدية، ربما قال لنفسه، ذقنها مدبب وحاجباها رفيعان جدًّا، كأنها تعملهما بالفتلة كلّ ليلة، وجهها الخمري صغير ومسحوب، ربما تشبه أسماء التي كبرت فجأة بين يديه فحرّموا عليه شفتيها، والله لو لم يكن حرامًا لتزوجتك يا بنتَ الدين، أنت أختي وحبيبتي وتعرفينني أكثر من نفسي. يُكلمها عن الجنس والأديان ولا يخاف أن يخدش كؤوس شراب الورد في داخلها، يصر أن تشدّ نفسًا من سيجارته فتسعل، وتلكزه، لكنّ سعدية أنحف قليلًا، رغم لدونة جسدها الغائب في جلباب البيت الواسع، وأكثر جرأة دون شك. وفي اسمها موسيقي لعوب.

مساءً، على المقهى، جذب محمود أنفاسًا مُتلاحقة من سيجارته

وهو يسمع ما كتبه صاحبه، ثم تمتم: سعدية، أين الموسيقى في هذا الاسم؟ وهل يجب أن يكون في اسمها موسيقى أساسًا؟ وهي ليستْ وسيلة لينفض الواحد عنه هذيان الليل، ثم إنني لم أرَ أثرًا للهذيان ولا للبانجو، أين الهذيان في عبارات مرتبة ومنظومة؟ أنت إذن من كان واقفًا تحت نافذة الردهة ليجمع الحروف والكلمات والصور ويعيد ترتيبها وجمعها ولصقها بصبر القديسين المريض، وبعد أن اختلطت كل الأشياء في فوضي حقيقية، عدتَ تسبّح بحمد الهندسة والبناء والبحث عن المعني المراوغ، كيف تدعي معرفة كل شيء وتتحدث بلسان الجميع من غير قلق أو شك؟ وأنا بالمناسبة ما زلت أبوس أسماء لما أريد، ولا يمكن أن أكلّم سعدية عن الحقيقة لكيلا تلعّب إصبعها الوسطي في وجهي.

انتظر فؤاد حتى يمر موتوسيكل من ورائهم ويتلاشى هديره المزعج، ثم قال: يعني ماذا سيحدث في الدنيا لو تكلّم الواحد عن الحب، من غير تجربة حقيقية؟ من خلال ما يُحكى له أو ما قرأه، الخبرة الإنسانية المختزنة بداخله ربما ترشده، ألا بدّ أن أكون مدمنًا لكي أعرف كيف يهذي واحد مثلك وهو غائب عن الوعي؟ وسعدية بين سطوري لا ينفع ولا يجب أن تكون هي هي التي تثرثر معك بين المحاضرات، وإذا كان ما كتبتُه محض أوهام فقد حدثت بمجرد أن كتبتها، أصبحت ـ على نحوٍ ما ـ أكثر تجسدًا وربما أطول عمرًا.

الردهة من غيرها باردة وكئيبة، بدأ يساوره القلق بسبب غيابها، أوصي إحدى زميلاته أن تسأل عنها عم منصور، والدها، فجاءه الخبر: خطيبها مات في حادثة قطار.

عادتْ بعد فترة في ثياب الحداد كأرملةٍ طفلة ولم يظهر محمود، ولعلّها قالت المكان من غيره بارد وكئيب. عرفتْ أنّه سُجن مع آخرين بعد اشتراكهم في اعتصام مع طلاب كلية التربية في روكسي، وكان قد اتصل بها بعد أن علم بخبر الوفاة، نادى عليها الجيران فاستغربت، لما سمعتْ صوته رُدّت إليها روحها، قال إنه يفتقد القهوة المسكّرة جدًّا التي تعملها له، وقال إنها لا بدّ أن تعود بسرعة لكي تهزم الموت بالحياة، دائمًا نفس الكلام الذي لا تفهمه ورغم هدا يريحها. الحياة هي التي تهزمني الآن يا محمود، لا الموت، الحياة ثقيلة علي، السياسة التي سجنتك مثل القطار الذي خرج عن قضبانه فقط ليروح مني طارق، طارق الذي كان يودّ أن يهرب من التجنيد، فضغطتُ أنا عليه ليذهب ويلبس لبس العساكر الكاكي ويكتسب سمرة شمس الخلاء وانكسار المحكوم، فقط ليروح مني، كأن كل شيء يتآمر علي، حتي هذه الأكواب والبوتاجاز الصغير، الماء المغلي، الإبرة التي تشكشك الأصابع، الطلّاب يغطون الأرض بالمناديل وأعقاب السجائر والأوراق، فقط لينكسر ظهري وأن أكنس، كل شيء يتلاعبُ بي، حتي صوت الكروان ابن الكلب الذي يوقظني من غفلتي بصرخته فأظنه هو، هو، طارق. أفلت من يدها الكوب فانكسر على بلاط الأرضية متناثرًا جذاذاتٍ لامعة وناعمة وحادة.

32
•

كان يلاحظها، كما اعتاد، من بعيد، اقتربَ يلملم معها كسرات الزجاج. كان فؤاد تقريبًا يرتجف ولا يعرف لماذا، كأنه يقترب من وثنٍ صنعه بيديه، سألته بلهفه عن أخبار محمود. طيّب، واحدة واحدة، لا لم أكن معهم يومها، كلهم بخير والله، سيخرجون قبل العيد، بالتأكيد، صدقيني، ومحمود، أحسن مني ومنك، آكل شارب نائم وعامل دماغ أيضًا، معكِ حق، لم يكن له لزوم من الأصل، لكن محمود وأصحابنا يؤمنون بالناس والناس لا تؤمن بنفسها، مُشكلة. ربما كان طعم شايها ماسخًا وعيناها دامعتين عندما تركها فؤاد ليمزق القصّة.

ما كل هدا يا مفتري؟ قلبتها دراما على الآخر، جعلت البُنية تترمّل قبل أن تفرح، أدخلتني السجن لمجرد أن يخلو لك الجو معها، فتكتشف كم هي بنت عادية جدًّا، يا مسكين، إن سحرها بالضبط في هذا، لو رأيتَ وجهها الصغير بين الزحام لن يستوقفكَ أبدًا، لمّا تشوفها لأوّل مرة تكاد تقسم أنك رأيتها من قبل، تُولد بينكما ألفة من أول كلام، فقط لو تصدق أننا بشر ولسنا فرسانًا أو أميرات في الحكاية، بشر تستهلكنا التفاصيل: القهوة والسجائر، الترتر والخرز، مُعلم القراءة والزجاج المتناثر على البلاط. تفاصيل مجردة من أي معنى مراوغ، لا تحمل في داخلها سوى نفسها، كما أن اسم سعدية حُلو من غير موسيقى نتخيلها فيه، صحيح أن علاقتي بالكلمات مضطربة ولستُ شاطرًا مثلك في الحبكة والبنية ورسم المشاهد، لكني في هذياني المشوش ذلك لا أكذب ولا أضع حول الناس هالة من النور المخادع، علاقتي بهم على الأرض تقودني، حتى لو كان إنتاجي مجرد قصاصات ورق تتطاير مختلطة من نافذة الردهة، مجرّد رذاذ خفيف يبلّل وجهي فأنتبه لابتسامة

سعدية، وأمسح الماء عن غلاف الكتاب وأتساءل: هل أقرأ الآن لجان جينيه أم عنه؟ ربما لا فرق.

-6-

بعد إجازة العيد قابلته، في غفلةٍ من الجميع أخذته في حضنها، شدّت الكاب بعيدًا فبانت رأسه لامعة، كفّارة يا معلم، وكانت قد تركت الأسود ولم يعد يضحك عليها أي كروان. أمام بوابة آداب مرا بـفؤاد وسلّما عليه، كان يريد أن يكتب عنك قصة، أنا؟ معقول؟ كتبتُها فعلًا، لكنها لم تعجبني فمزقتها، خسارة.

تركاه وذهبا ويده اليسرى تقبض على يمناها. قال لنفسه: لا بأس. سأعيد كتابتها من جديد.

يونيو 1999

رسالة المعذّب من ع

عزيزي محرّر باب (اسأل قلبك)، بعد التحية، ترددتُ كثيرًا قبل الكتابة إليكم بمشكلتي، وربما هي ليست مشكلة من الأساس، مقارنةً بما نقرأه كل يوم، لكنها بالنسبة لي أزمة وأي أزمة، تكاد تجعلني أُجَن، إن لم أكن قد أصبتُ بمسٍ من الجنون فعلًا.

أنا يا سيدي موظف متوسط الحال تجاوزت الخمسين بعامين، متزوج منذ أكثر من 20 عامًا ولدي ثلاث بنات وشاب، حياتي هادئة ومستقرة، أو كانت هكذا بالفعل قبل حكايتي هذه، والحكاية أنني منذ حوالي ثلاثة أعوام اكتشفتُ في نفسي موهبة عجيبة أو قدرة خارقة أو ما لا أدري ما هو، اكتشفتُ أنني إذا نظرت لوجه أحد الأشخاص أستطيع في التو أن اكتب عنه مُلخص حياة: أهم الأمور التي حدثت له أو حتى تلك التي ستحدث له قريبًا، بيان حالة موجز مع إسقاط التفاصيل.

لا تتعجّل سيد بالحكم، فلستُ مجنونًا، على الأقل حتى الآن، وأنا رجل يعرف الله جيدًا، لكني عقلاني جدًّا ولستُ درويشًا، أقرأ بانتظام وعندي مكتبة صغيرة، بها معظم أعمال مصطفي محمود وأنيس منصور وهيكل وغيرهم.

والحكاية بدأت كالتالي: كنتُ في طريقي للعمل عندما وقع بصري في الأتوبيس على رجل يجلس قريبًا من مكاني، عندما حدثّني شيء ما بداخلي أن هدا الرجل الطيّب المسالم والذي لم يؤذِ مخلوقًا طول عمره، هذا الرجل سيموت قريبًا ميتةً بشعة تاركًا

وراءه أطفالًا صغارًا.

حاول تفهمني، يا أستاذي العزيز، لقد جاءني هذا الخاطر مرة واحدة، هكذا: طاخ طُخ، طلقة نارية طائشة، كأنه ومض البرق يختفي بمجرد أن يتوهج، أو كأنه نافذة تنتفض في عز الليل مفتوحة من ريح شديدة، لكن عذرًا، لن أسترسل في تشبيهاتي تلك طويلًا، لأنني لو تركتُ لها نفسي لابتعدنا عن أصل المسألة وتُهنا معًا.

القصد: لما جاءني هدا الخاطر الغريب أردتُ أن أصرخ في وجه هذا الرجل لينتبه، يعمل حسابه، يحترس، يفعل أي شيء لأنه سيموت قريبًا جدًّا، لكني ضحكت من نفسي وسخرت من الفكرة وسرعان ما نسيت الأمر برمته، إلى أن صدمتني صورة نفس الرجل بعد يومين أو ثلاثة، على صفحات الحوادث، وتحت عنوان (شهداء الشهامة): نزلَ الرجل في إحدى البالوعات لانتشال طفلة سقطت فيها، لم تُنْقذ ومات الرجل مع آخرين. أصابني الهلع، إذن فالإشارة صحيحة والطلقة صائبة، رحتُ ألف وأدور حول نفسي، أتوضأ وأصلي واقرأ القرآن، هل هو امتحان من الله؟ هل هي كرامة من عنده؟ طيّب ما معني هدا كله؟

بقيتُ لمدة أتحاشى النظر إلى وجوه الناس، لكي لا تنزل عليَّ صاعقة جديدة، لكني قلت وماذا لو أنّ الأمر لا يتكرر، ربما هي لحظة مُضيئة جاءت وذهبت وخلاص، اكتشفت خيبتي سريعًا، الأمر كله متروك لي ولمجرد إمعاني النظر في الوجوه، ورغبتي في النبش وراء ملامح مَن حولي في الشارع أو المواصلات، الناس الغرباء بالذات ومَن أراهم لأول مرة تحديدًا: مثلًا هده المرأة

السمراء البدينة مُطلقة وعندها عيلان وتمشي مع أحد جيرانها وتبحث عن شغل، وهدا الولد الأحول تقريبًا يفكر منذ مدة في الهرب من البيت ليفلت من قبضة أبيه القاسي، سيظل يفكر طويلًا جدًّا ولن يفعل أي شيء حتي يكبر ويشيل الهم بعد أبيه، والفتاة المسمسمة على يميني خطيبها في الكويت وتنتظر رسائله بفارغ الصبر، والرجل الذي يضايقها منذ طلع العربة واقع في مشاكل مادية سترمي به في السجن بعد شهرين على الأكثر. لم أكن محتاجًا لتتبع أثر هذا الشخص أو ذاك للتأكد من صحة خواطري حوله، فقد كانت تأتيني يقينًا لا شك فيه.

هل يبدو لك الأمر خياليًا مُضحكًا؟ لكنه حقيقي مائة في المائة ولا يبعث على الضحك بالمرة، أمواج الوجوه تطاردني أينما أروح، كل وجه يحدّق فيّ كأنه يطالبني أن أنبش عما وراءه، أن أخلع عن الناس العابرين قشورهم، لأري المكائد والخيبات والأماني، أري فساد القلوب وعمارها، أري الحيرة والتعب والمحبة، أري كل شيء، وصدّقني يا أستاذي إن كل ما يصل إليك بالبريد من مصائب ليس شيئًا عندما تبدأ في قراءة الوجوه، وتزدحم رأسك بحكايات موجزة وقصيرة، لكن حادة وجارحة وتوجع القلب، عندها فقط تستفيق وتنتبه، عندها تدخل الجحيم الحقيقي الذي نعيشه جميعًا. لكن لماذا أكتب إليك الآن وبعد مرور ثلاثة أعوام من بدء هذه المحنة التي اعتدتُها مع الوقت؟ هذا هو المهم فبعد أن دخت السبع دوخات لكي أشفى من هذا المرض أو أخلص من هذا الوهم: طبيب نفسي، دار الإفتاء، الأولياء والمشايخ، نصاب سوداني يدَّعي أخوة الجان عرض عليّ العمل معه، والمكسب طبعًا مضمون لمن يقرأ الوجوه كأنه يقرأ واجهات

المحلات في الشوارع. سبب كتابتي إليك بعد أن أصبحتْ هذه المحنة لعبة يومية مسلية، هو حدوث ما لم أتوقعه، ما يجعلني الآن أخبط رأسي في الجدران وأعض الأرض: كنت أنتظر الأتوبيس الذي تأخَّر عندما رأيتها، بشرة بيضاء وعيون عسلية، في الثلاثين تقريبًا، شرعتُ بلا اهتمام أو جدّية أقرأ وجهها، ربما لأخرج من ضيقي لتأخر الأتوبيس، وبمجرد أن حاولتُ داهمني الفشل، كقلعةٍ منيعة لا يبلغ لها البصر نهاية تهزأ بالغزاة، هزيمة بالغة، بياضٌ صافٍ جدًّا، لا شيء. بعد ثلاثة أعوام من اللعب المتواصل تأتي هذه البنت الآن لتسخر مني، إنني حتى لا أعرف إن كانت بنتًا أم امرأة. يا ربي، إن وجهها الهادئ لا يخبرني بشيء، لم يسمح لي بالاقتراب منه، كأنها تمتلك جهازًا خاصًا يشوّش محاولتي ويلقي بها بعيدًا، كانت تنظر أمامها في صمت، لا تبص على شيء بعينه، كأنها تنظر إلى داخلها فتكتفي.

والله لا أعرف مادا أقول، أنا الموظف المحترم الذي تجاوز الخمسين ولديه بنات مخطوبات وولد كالبغل، يحدث لي كل هذا، طبعًا ذهبتْ الفتاة قبل أن أفيق من ذهولي، منعتُ نفسي بالقوة من الذهاب في إثرها، قلتُ ربما انتهت اللعبة وهذه هي الإشارة، لم يحدث، فقراءة الوجوه صارت أيسر، لكن من غير طعم ولا معني، فما جدوى الكشف عن حكايات بعدد العيون والحواجب والأنوف في العالم، ما جدوى ذلك ما دمتُ وقفت عاجزًا أمام وجه أبيض وعينين عسليتين تنظرُ إلى ذاتها. كيف امتنعتْ عليَّ، كيف أفلتتْ من الضوء الخاطف الذي يضئ أمامي في لمح البصر حياة إنسان في جملتين أو ثلاث.

أنا الآن في حالة يُرثى لها، أخذتُ من العمل إجازة، انعزلتُ في

حجرة المسافرين، لا أكلّم زوجتي ولا الأولاد، ربما يكشف الله عني هدا الغم، أقرأ القرآن والأدعية، أصوم وأصلي وأنام لمامًا، لكني أنهض بمجرد ما أنام مفزوعًا لما أرى وجهها يسخر مني ويُعلن خيبتي، عندها أبكي، أي واللهِ العظيم يا أستاذ أبكي بحرقة طوال الليل، لإحساسي بالمهانة والعجز والخذلان.

السلام

المعذَّب م. ع.

مايو 1999

صور
الذكرى

-1-

من جديد جمعتهما الصدفة الشرّيرة بعد نحو ستة أعوام. التفتت إليه لما لمس كتفها وللحظة لم تتعرف عليه.

قالت: هو؛ تلميذ المدرسة الثانوية بالكويت، الأخرس المشاغب، يقف بالفناء غير مصدّق أنّه نجح أخيرًا، تغمره شمسٌ حادة بضوء أبيض وتلتمع عيناه عميقتا السواد بابتسامة.

قال: هي؛ الوكيلة المصرية الحلوة، تقف بعد ظهور النتيجة تطل من نافذه مكتبها كما يليق بملكة، وتسأله ماذا ينوي أن يفعل بعد معجزة نجاحه، فيشير بيديه على شكل كاميرا ويلتقط لها صورة متوهمة، تضحك: وبعدها؟ يمدّ ذراعيه أفقيًا على آخرهما مرفرفًا كطائر.

-2-

في البداية ظهر أمامها فجأة مثل طفلٍ عملاق. عرفتْ من أمّه أنه مفصول من مَدرسته لاستنفاد سنوات الرسوب، فقدَ النطق صغيرًا لكنه يسمع. أتعبني والله يا ستنا، وأبوه لم نعد نراه، لا أقدر عليه أنا، اقبليه عندكم يا أبلة شادية، يا ست الكل، امنحيه فرصة يأخذ الثانوية وبعدها لا يهم.

اكتفى هو بالتحديق في الجدران كأنّه لا علاقة له بما يقال، ثم استقرت عيناه على صورة فوتوغرافية على مكتبها كانت تقف فيها أمام جامع الحسين وتبتسم مُحتضنةً إليها جسدها، وفي الخلفية تتوهج أنوار إحدى المآذن كأنها كنز مخبوء.

سألته: تعجبك؟ أجاب برأسه: لا. ولم يهتم بشرح ما أحسّ به؛ زاوية الالتقاط مرتبكة. سارعتْ أمّه بتوضيح أنه مهووس بالتصوير، ينام يحلم بالأفلام والصور.

نادته هي: عبد الله. سدّد لها نظرة وقحة اعتاد أن يريك بها النساء، فخابَ ظنّه، لا أثر على ملامحها لخجلٍ أو تواطؤ. تابعت قائلة: فرصتك عندي سنة واحدة، نجحت خير وبركة، ما نجحت مع السلامة أنت والمصاريف التي ستدفعها، اتفقنا؟ أومأ إيجابًا، وهو مفتون بالندب الرفيع الذي يقطع طرف حاجبها الأيمن. قامت وصافحت أمّه، ثم مدّت له يدها فارتبك، أحسّ كفّها قوية وهي تشد على أصابعه. عندئذٍ فقط أدركَ التحدي الذي تورط فيه.

-3-

داخل نفق المشاة المعتم توقّف ليشُعل سيجارة. مرّت من أمامه، كأنها هي، ألقى بعود الثقاب وأسرع خلفها. فيما تصعد السلم للناحية الأخرى من الميدان انطبعتْ على وجهها أضواء خافتة. قال هي، لم ينادها واتجه نحوها.

كانت في طريقها لدكّان التاجر العجوز، رجل طيب ومعرفة قديمة، ولديه حسّ فنان فطري، يشتري تماثيلها الصغيرة بأثمان معقولة. هي لا تبيع إلّا القطع التي لا تعجبها شخصيًا، أمّا تلك التي تأخذ شيئًا من رُوحها فتحتفظ بها لنفسها.

كان ذاهبًا لينام في الفندق الإسلامي، بعد جولة لف ودوران، يوم وليلة، مع الكاميرا في الشوارع والميادين. كأنه سكران من فرط تعبه، وفرحان مع ذلك لعدم شعوره بجسده وبما حوله كأنه في حلم.

نقرَ بخفة على كتفها فالتفتت إليه، وبدت للحظة وكأنها لم تتعرف عليه، ثم انفرجتْ ملامحها: مَن؟ عبد الله؟ يخرب عقلك، كيف حالك يا ولد؟ صحيح، الدنيا صغيرة.

وجدا الميدان مغويًا وأذان المغرب يلعلع بأكثر من صوت، فجلسا. طلبتْ قهوة مضبوطة وأشارَ هو مثلها. ناولها سيجارة فابتسمتْ وهو يشعلها: ألم أقل لكَ زمان لا تُفرِط في عاداتك السيئة، لكي تستمتع بها وقتًا أطول؟ ورددتَ أنتَ ساعتها: أموت مدخنًا ولا أعيشُ محرومًا. ضحكتْ بقوة، كأنها مرتبكة. أخرجَ من شنطة الظهر الرياضية رزمة أوراق بيضاء، كتب بخط واضح: المعلمة القديمة ما زالت تجيد النصائح. انتبهت إلى استغنائه بالكتابة عن الإشارات. سألته فكتب: أبدو معتوهًا وأنا ألوّح وأشوّر، وهناك أمور لا ينفع معها إلّا اللسان أو الورقة والقلم على الأقل.

لم يكن هناك مهرب، الأسئلة المعتادة عن الأحوال، قدّمت تقريرها كالتالي: نجحَ زوجي أخيرًا في واحد من مشاريعه الاستثمارية المجنونة. ستتزوج البنتان قريبًا ومن شقيقين أيضًا، كلما اقترب الفرح أزداد حيرةً وارتباكًا، هناك تفاصيل لن يهتم بها أحدٌ غيري.

متلذذًا وضعَ يدَه على جرحها. كتبَ: ماذا عنكِ أنتِ؟ أدركت أن علامة الاستفهام التي رسمها بخفة على الورقة موجهة إليها كإصبع اتهام. أنا؟ أنا في أحسن حال، أذهب إلى المعارض وأحضر الندوات، ثم إني أبدع كذلك، على قدي يعني، تماثيل طينية تجد طريقها للبيع.

تقدمتْ لتحتل موقع المهاجم، أشهرت نفس السلاح: وأنت؟ ما أخبارك وأخبار التصوير؟ ابتسم بمكر، وأسرع بقراءة المحطات الرئيسية، دون توقف عند أي منعطفات جانبية للسنوات الأخيرة.

تزوج بنت خالة ثم طلقها بعد أقل من عام، لم يحبها وهي معذورة لم تستطع التواصل معه. تزوجت أمه فبدأ رحلاته هنا هناك، عمل مصورًا لبعض المجلات، لكنه لم يستقر في عملٍ واحد قط. ليختصر كلامه أو ليذكّرها بلحظةٍ بعيدة، مدّ ذراعيه وهو جالس مرفرفًا، مثل مَن يتوهّم أنه يطير. عاودت ضحكاتها الحرة.

-4-

منذ اليوم الاول اعتبرتْ موضوعه بالفعل مسألة تحدٍّ، ولا يسألها أحد لماذا. بدأتْ تطارده في ممرات المبني لتتأكّد من جلوسه في الفصل، وسط زملائه الأصغر سنًا وحجمًا. يراوغها باستمتاع مجرم، وتتعقبه بدأب كلبة بوليسية مدربة. تنبهتْ ذات نهار لتجده غائبًا عن دروسه، دلّتها الأدخنة المتصاعدة من دورة المياه على مكانه. كان مع اثنين آخرين تعرّف عليهما سريعًا من محترفي الرسوب والسجائر الملغومة. صرختْ فيهم هذه لم تعد مدرسة بل محششة. دنا أحد الطالبين منها: أهلًا أبلة، تعالي خدي لك نَفَس يا شيخة. نافثًا في وجهها الدخان. لوى عبد الله ذراعه ودفعه للحائط، ولا يسأله أحد لماذا.

تمّر فصل الطالب المتبجّح مع إنذار بالفصل لكلٍ من الآخرين. رفتت الفراش المتواطئ وعينتْ واحدًا كان بمثابة حرس خصوصي لمنطقة الحمامات. أخضعت الطلاب وبالذات أصحاب السوابق لحملات تفتيش مفاجئة وعشوائية، ما جعلهم يترددون قبل الاحتفاظ بسجائرهم العادية حتى.

وأخيرًا دخلت مع عبد الله في أول مناقشة بيزنطية بينهما لتقنعه أن التدخين ليس فيه أي متعة خاصة، لكننا نتوهم ذلك بعد

أن يتمكن منا كعادة لا يمكن الفرار منها. وأنا نفسي كنت أدخن أيام الجامعة، التدخين وقتها كان موضة لإثبات حرية البنات، لكني اكتشفت كم هي عادة سخيفة وبلا معني وتقصف العمر أيضًا. وانتهيا إلى أن يخفف قدر الإمكان من السجائر على ألّا يقرب تلك اللفافات الأخرى بالمرة. جعلته يقسم بحياة أمّه فأذعن لها مضمرًا أن يرجع عن يمينه في أقرب فرصة. ثم امتلأ رعبًا عندما مرّ به أسبوعان من غير لفافة واحدة من إياها. اعترف لنفسه أنّ لها براعة مروض في سيرك وصبر ناقة، فقرّر أن ينكش غزلها كله بضربةٍ واحدة وغير منتظرة. أعدّ خطته وكله نشوة وأطلق عليها (مصيدة الحب).

-5-

كانت أخبار معاركها الجهنمية تصل بانتظام إلى زوجها في عمله، فلا يتعب من تذكيرها بأنها تتدخل دومًا فيما لا يخصها.

ما حكاية الولد الأخرس هذه؟ ألن نكفّ عن الدخول في معارك؟ توقّف ليبتلع قطعة اللحم التي وقفت في حلقة. أم أنكِ نسيتِ موضوع التزوير في أوراق الامتحان العام الفائت وكيف فضحتِ الناسَ كلها، لولا ستر ربنا كان زماننا الآن في مصر على فيض الكريم، لا بدّ أن نحترم ظروف البلد الذي نأكل فيه لقمة عيش. تدلّت السباجيتي من فمه فسحبها بلسانه مسرعًا. ولا بدّ أن ننسي (بقا) المناضلين القدامى الذين باتوا مع المقاطيع في الشوارع أيام السادات. انبعث صوتُ ابنتهما من تحت ماء الدش رفيعًا ومغناجًا يترنح بأغنية خليجية راقصة. كُنا صغارًا وبلا مسئوليات.

حملَ معها الأطباق إلى المطبخ وبدأ يغسلها بينما أشعلت هي النار تحت ماء الشاي. لا نريد لأيامنا هنا أن تطول عن اللازم،

لدينا في مصر أحلام ومشاريع يجب ألّا ننساها. تناولتْ من جيب قميصه علبة السجائر وانحنت تشعل واحدة من نار الموقد فبان أعلي صدرها مبتلًا بعرق خفيف. طلب منها والدخان يحجب وجهه عنها ألّا تهدّد سمعتهم وحياتهم من أجل نزوة تمرد. خرجت عن صمتها وهي ترفع البرّاد عن النار: طيّب، لما نشوف، حاضر.

-6-

راحت بسرعة حرارةُ اللقاء. لم يجد أيٌّ منهما خجلًا من التفرّس في ملامح الآخر. أسندتْ ظهرها للكرسي واضعةً ساقًا فوق أخرى وتأملته: أطلق لحيته من غير اهتمام، وصارَ سواد عينيه رجوليًا خالصًا، لكن كيف احتفظتْ نظرته بشقاوة المراهق البليد؟ تتطلع إلى ذاتها في مرآة عينيه: وكيلة المدرسة تناطحُ الجميع من أجل أخرسها المدلل، غير عابئة بالشائعات. آخر صيحة رفض أطلقتها قبل أن تنفذ بجلدها إلى مصر، تحت القصف، مخلفةً وراءها أوراق كتابها الأول والأخير، قبلَ أن تُترك منسية في حجرة جنونها الخاص، لتذوّب أيامها في عجن الصلصال بين أصابعها وتشكيله، فيما تتكسّر صورتها على المرايا التي تغطي الجدران حسب رغبتها، تعيشُ على المهدئات فتبدو كالمنوّمة مغناطيسيًا طوال النهار ومثل شبحٍ طيّب في المساء.

نقر المائدة بأصابعه فرأته فجأة، رغم أنها كانت تنظر إليه. ابتسمت وارتشفت آخر قهوتها. أراحَ وجهه على يده المضمومة، مرتكزًا على رخام المنضدة بمرفقه ورنا إليها: للمرة الأولى يرى شعرها المقصوص والذي بدأ يضرب إلى الرمادي، متروك دون صبغة بثقة امرأة لا تهتم بالزمن أو لا تشعر به أصلًا، وفيما عدا

خط كحل أسود كان وجهها بلا مساحيق. راح بدوره يبحث لديها عن صورته القديمة: ناجح الثانوية العفريت، المجنون بالكاميرا، يريد أن يلف الدنيا كلّها، قبل أن تفضّل أمّه عليه رجلًا آخر لا يكبره إلّا قليلًا، ليمضي الشاب الأخرس بعنقود الكاميرات والجينز الكالح، يمضي مستمتعًا بخيباته المتكررة، دون أثرٍ كطيف، مخلفًا وراءه فقط الآلاف من قصاصات الورق الصغيرة في كل ركن: (عندي مغص فوق المعدة مباشرة) - (هل عندكم واق ذكري من المستورد) - (أنا أخرس ومعجب بكِ فهل ترقصين؟ لا تخافي، أستطيع أن أسمع الموسيقى) - (أريد تذكرة إلى بيروت على أول طائرة).

يالأنانية كل منهما، لم يهتم بالآخر إلا قدرَ اهتمامنا بمرآةٍ مُعلقة جنب الباب ونطمئن فيها على شكل ربطة العنق أو تسريحة الشعر والابتسامة ثم نذهب صافقين الباب، وكعقابٍ عادل لا نعثر على صورنا القديمة لدى الآخرين، لذا نموت غيظًا وربما قادنا هذا إلى لُعبة شد الحبل الشهيرة: نجذب الآخر إلى أرضنا بكل قوة لكي يموت ولا نراه أمامنا بعد. غالبا ما يقع الجميع دون جدوى.

-7-

في عيد الأم وبعد معركة ناجحة منعتْ فيها تقديم الهدايا الثمينة إلى المدرسات، طرقَ بابها، أُدْخل، كان متجهمًا ومهملًا ثيابه عن قصد، ولحيته متروكة مثل صعلوك شريد، بين أصابعه السمراء الطويلة وردة هائلة الحجم بلون الدم الحي وما زالت بنداها، وضعها أمامها في وجوم مَن يزيّن ضريحا وخرج دون كلمة.

بلهفة تلميذة إعدادي ضمّت إليها وردتها، مساءً وقبل أن تضعها بين صفحات يومياتها اكتشفتْ اللعبة فضحكت من نفسها وقالت إن الخطوة التالية رسالة غرام سيمررها من تحت بابها. بعد يومين أو ثلاثة مرّت الرسالة من تحت باب مكتبها فعلًا، أخذها الأسلوب الذي ابتعدَ كثيرًا عن تعبيرات المراهقين المعتادة، داعبَ غرورها بتلميحه إلى شبابها وحيويتها، أشارَ باقتضاب إلى الندب في حاجبها كعلامةٍ مقدسة، يا سلام، أقصى ما أتمناه أن تسمح لي الأبلة المحترمة بمعاودة الكتابة إليها، فقط الكتابة إليها. الأخرس فصيح جدًّا. أخذتْ عليه جبنه في عدم الإفصاح عن هويته.

ما لم يعمل له حسابًا أن تقطع عليهم الدرس وتدخل وقد أشهرت في يدها جواب الحب المقدّس، الذي عانى ثلاث ليالٍ حتى كتبه بأقل قدر ممكن من السطحية والسذاجة. قالت إن أحدهم كتب هذا الشيء وتركه في حجرة إحدى المدرسات، دون أن يكون لديه ما يكفي من شجاعة ليوقع باسمه، لو اعترف الآن سنسامحه طبعًا وسنعرف أنه لا يقصد الحماقات التي خطّها، وأننا من الممكن أن نكتشفه بسهولة لو قارنّا الخطوط، لم تنظر نحوه ولو للحظة فيما تجمّدت ملامحه مثبتًا بصره عليها، هذه ليست امرأة بل عمود رخام. قالت إذن لا بدّ أن العاشق الولهان في فصلٍ آخر. وخرجتْ دون أن تبحث بالطبع في أي فصلٍ آخر.

جعلته الهزيمة يدخل نوبة جديدة من نوبات عزلته، أغلقَ باب حجرته وشرع يكلّم نفسه: ما يؤلمه هو فشله في غوايتها، كأنني مجرد جرو لا أملأ عين الست الوكيلة. لو أقتل زوجها في جريمة محكمة ثم أتزوجها وأكسر أنفها. كانت هناك، تبصّ إليه من سقف الحجرة وتسخر من أفكاره الصبيانية وتتبادل معه الشتائم.

في فراغ وحدته أحسّ بالوحشة لمقالب القط والفأر التي

جمعتهما طوال أكثر من نصف عام دراسي، أخذه الحنين إلى الحوارات الطويلة التي كافحتْ خلالها لتقنعه أن البشر ليسوا مجرد نفايات، وأن في العالم الواسع ما يستحق الالتفات نحوه، وليس مجرد التقاطه بسرعة في ضوء خاطف وآلي، وحبسه في كارت بوستال، بل الإحساس به مباشرةً، العالم - بعيدًا عن اللفافات الشيطانية - مليء بالمهووسين والهزائم والانتصارات والمكافحين وتجارب الحب. قرّر الخروج من دوامة هلوساته فقط ليتعرّف على العالم الذي تتحدث عنه أبلة شادية بثقةٍ عجيبة، خرجَ يريد أن يلفّ الدنيا كطائرٍ حر.

استقبلتْ عودته بعدم اهتمام، ربما لتواري الخوف الذي حرمها النوم من أن يستمر في عزلته ولا مبالاته، حمد الله على سلامة الأمير عبد الله، والله كنا سنرسل لك الشهادة لحد البيت، لم يلتفت لسخريتها، عرضَ عليها أمنيته في هدوء، سينجح ويتفوّق، لكنّ له رجاء وحيد، وعندك شروط أيضًا؟ يتمنى لو يأخذ لها صورة، صورة عادية جدًّا، تحت ضوء الشمس وفى مساحة واسعة. صورة للذكرى يعني؟

في تلك الأيام عادتْ بحماس للعمل على كتابها الذي لن يرى النور أبدًا.

-8-

ربما انتهى المؤذنون الآن من رفع أذان العشاء في الميدان المسحور، ولا مانع من قطة تتمسّح في أرجل الموائد ثم تتسلل إلى فرش الشحاذ النائم وتنام في حضنه الدافئ. كل شيء جائز في المصادفات التي لا يتبقى منها سوى صور في ألبوم، صور مُهملة وبلا معنى، أو في الذهن تبهت وتروح. والكتاب كان عن طالبة

السبعينيات وزمن الأحلام الكبرى والانكسارات، أدركت أن من شجعها على الكتابة هو عبد الله، ففكّرت أن توجّه له الإهداء: (إلى الأخرس الذي جعلني أتكلم) مثلًا. تقدمتْ في الكتابة مخ تقدمّه في المذاكرة. ربما قالت كأنّ خيطًا غامضًا يشدني إلى هذا الولد، ليس حبًا بالطبع، فما زلت قادرة على مبادلة زوجي المودّة والألفة، على الأقل وفاءً للهزائم التي اجتزناها معًا، وليس نوعًا من الأمومة أيضًا، فلم أبذل نصف هذا الجهد مع البنتين، إنه شيء كتحقيق الذات.

في أوّل أيام الامتحان توجهتْ إلى لجنته، لتشجّعه بكم كلمة، تتسع ابتسامته كلما اقتربت من مكانه، عضلات ذراعيه وصدره بارزة من تحت الجلباب الأبيض. تحدّث بيديه، لا أدري مرعوب طبعًا. لا تخف، ستنجح، صدقني، أنا واثقة، على الأقل لتأخذ لي الصورة التي تريدها. من أين تأتينا كل هذه الثقة؟ نتصرّف وكأن الدنيا ليس بها أحد سوانا، لا مراقبين في اللجنة ولا ممتحنين، نحن غير مرئيين وضحكاتنا المتصاعدة غير مسموعة على مقهى حميم.

بعد ضرب الكويت جرى يبحث عنها في كل مكان، لم يجدها، قال الأخرس إن الأبلة كانت الحاجة الحلوة الوحيدة في حياته وربما ستظل هكذا، صورتها - على الأقل بداخله - محفورة بعناية، تبتسم وهى تطل من نافذة المكتب وهو ناجح يكاد يرتفع محلقًا.

-9-

مالك يا أبلة؟ يبدو عليكِ الإرهاق والتعب؟ أنت تعرف، المشاغل العادية، التعب اللذيذ من أجل من نحب. أقول لك سرًا، كنتُ وما زلتُ مغرمًا بهذا الندب في حاجبكِ ولا أعرف لماذا، وأردتُه أن يظهر واضحًا في الصورة التي لم ألتقطها لكِ للأسف.

تصدّق: هذا الندب هو ما تبقى لي من أيام زمان، ضربني ضابط في التحرير أيام أحكام الطيران فجرحت. حاولتْ البنتان إقناعي أن أتخلّص منه بعملية بسيطة، لكني رفضتُ بعناد، فهو الدليل الوحيد على الثورية التي كانت، حتى أوراق الكتاب اليتيم ضاعتْ عندكم بعد الغزو، كل شيء راح، كما تقول الأغاني.

لماذا تحبسين نفسك داخل ذلك الماضي؟ أين حاضرك؟ عيناك منطفئتان تمامًا.

أنت ولد خفيف ومجنون، أنا بالفعل أعيش حاضري كزوجة وأم وكإنسانة طبعًا، لكن الحياة ليست طيرانًا فزِعًا من هنا لهناك.

من السهل تصوّر هذا؛ صوتها يتهدّج ووجهها يشحب فيما يصبح خطّه ضربات عشوائية أكثر فأكثر، قهوة وسجائر ومآذن وحبل مشدود. الصدفة تقهقه الآن والكاميرا تقترب.

نعم أنا ولد خفيف، أطير مفزوعًا من هنا لهناك، لا أتعلّق بأحد بدعاوى كالحب أو الواجب، تركتُ خلفي في باريس بنتًا حلوة تدفع عمرها لتنجب مني ولدًا بعيون عربية، أنا هنا الآن منذ شهرين ولا أعرف أين سأكون بعد أيام، لكنكِ تحتاجين إلى ذلك، إجازة مفتوحة، تذكرة سفر لأماكن عديدة، سفر بلا عودة، حُرّة بجناحين، فقط صارحي نفسكِ بما تحتاجين إليه.

أنت الذي تضحك على نفسك يا شاطر، أنت ببساطة جبان، تخاف الاستقرار والمسئولية، تظن أنك طائر محلق وأنت حشرة أرضية، نصف مدمن، لا تطيق النظر لمرآة وتريد أن يُجن جميع الناس مثل حضرتك.

يا أبلة شادية لستُ قديسًا وكلنا حشرات تُسكرنا القيم والكلمات الكبيرة.

الإنسان لا يتحقق بمعزل عن الآخرين يا ابني.

إذن نستغل بعضنا بعضًا لنتحقق.

54 ليس في الحب استغلال يا حمار. شوف يا ولد، اسكت خالص، لا زلت صغيرًا ومندفعًا، سوف تتعلّم معنى أن تضحي بخصوصيتك وأحلامك من أجل من تحب، إذا كنتَ طائرًا يا أخي فابنِ لنفسك عشًّا، لو مرضت تنام فيه وحولك الوليف والعيال، اعمل لنفسك عشًّا تموت فيه بعد عمر طويل، بدلًا من الموت على الطريق بين أيدي الغرباء.

-10-

هدأ الكلام. الصدفة الشريرة نفسها اندهشتْ وصمتت. ابتسما للحظة العابرة بعد أن اكتشفا الفخ الذي نُصب لهما.

لمَر لا أعترف أن لهذا الولد ابتسامة معسولة وأنه أربكني بشيء أخطر من الحب؟ الطيران هو القفز في هوةٍ مظلمة، رُعبٌ ولذة، يا سلام، هذه الأفكار جاءتْ متأخرة كثيرًا، لا تنفع بعد 46 سنة ونضال وزواج ومرايا تضيّع الوحدة وتضاعفها وبنتين فرحهما يقترب.

أشعلا سيجارتين.

لمَر لا أفهم أن هذه المرأة ليس لديها ما تهرب منه مثلي، لا شيء يدعوها للذوبان في القطارات والسكك والفنادق. لديها من يحتاج إليها وتحتاج هي إليه، فما الذي يرمي بها في الهجرة من محطةٍ لأخرى ومن جسدٍ لآخر؟ الهمّ همي وحدي، فلا أحد ينتظرني، ولن أستطيع أن أقول سلامًا لمَن على الطرف الآخر من الهاتف أبدًا، فلم لا أسكت خالص كما قالت وأرمي هذه الأوراق

في أقرب سلة مهملات.

هدأ الكلام وأشعلا سيجارتين، شالَ عامل المقهى الأكواب ونظّف المطفأة وذهب. ابتسما للحظة العابرة التي لا تقدم لهما أيَّ وعود. باغتته فكرة فعرضَ عليها أن تمنحه الآن هدية نجاحه القديمة، التي فقدها منذ ستة أعوام أو أكثر، فرحتْ بالفكرة وقامت معه. وقفت في قلب ميدان الحسين، احتضنتْ إليها جسدها بذراعيها، أمسك ذقنها مُعدلًا من وضع وجهها لكي يظهر ندب حاجبها واضحًا في الصورة. أعدّ الكاميرا، تحرّك يمينًا وللخلف حتى ضبط الزاوية. من وراءها كانت أنوار المآذن تتوهج مثل كنزٍ مخبوء.

مارس 1999

عبْر زجاج نافذة مكتبه المعتم سيتابع خطوات الولد الذي يعبر الشارع. لن يرد على التليفون وعندما يلحّ الجرس سترفع المحامية الشابة السمّاعة ولن يلتفت إلى إشاراتها. هو الرجل نفسه الذي صحا فزعًا ليلةَ أمس ليتساءل: أهذا البيت بيته؟ هل اقترنَ حقًا بهذه المرأة بعقدٍ مقدس؟ وهؤلاء العيال كيف جاءوا دون أن نشعر؟ نتساءل للحظة، قبل أن نبلّل ريقنا برشفة ماء وننسى المنام الخبيث الذي أقلقنا، ونعود للنوم من جديد.

ربما يقول لنفسه، الذكاء أن تظلّ هكذا للأبد، تلميذًا خائبًا مثل ذلك الولد، الذي هرب من المدرسة ليقف منتظرًا أمام مدرسة البنات، يشوط بقدمه الحجارة ويطلق صفيرًا متناغمًا. أو هكذا يظن المحامي الكبير، فهو لا يمكنه سماعه من مطرحه هنا، حيث صوت مُكيّف الهواء الرتيب وخطوات الموظفين بالكاد مسموعة. كأنه الآن شخصٌ آخر، صاحب العمل المانح المانع، شخص لا يصحو على الفجر فجأة ليصيح أين أنا. شفرةٌ صغيرة وناعمة تفتح شريانه بلمسة سريعة حاسمة. يغطي الدم أرضية الحمام عالي السقف بشقة حي الضاهر القديمة، فيما ينثر صوتُ أبيه الأدعية في وجه العتمة. نافورةٌ صغيرة حمراء، مثل ماذا؟ مثل رفّة جناح، ابتسامةُ بنت، رعشةُ لذّة. نافورة دم يغطي ملفات القضايا ووجه السكرتيرة وقاعة المحكمة، وملابس المهندس الشاب الذي قتلَ بائعة الفل الصغيرة على الكورنيش، حتى النهر يصيرُ أحمر، ويلطّخ الجميع: العشّاق الجدد، أهل البائعة الذين قبضوا ثمن روحها، وعناقيد الفل، والوسيط الشاطر بين القاتل والقتلة: فخر

نقابة المحامين: أنا؟ أنا؟ ويبتعدُ صوتُ أبيه تدريجيًا: اللهم إنك أقرب من دُعي وأسرع من أجاب وأكرم من أعفا وأوسع من أعطى وأسمع من سُئل يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما. وتبتسمُ الممرضة للمراهق الذي صحا فزعًا وتخبره أنه المنتحر رقم 16 في حياتها المهنية. لا يسألها عن مدة عملها، أيام، شهور، سنوات، ليعرف هل هي نسبة عالية حقًا أم لا شيء. ويهز المحامي الكبير رأسه كأنه يقول: لا فرق، فيمَ يفيدُ عدد الحمقى؟ ولا يصحّ أن ننصت لمثل هذه الأسئلة لأكثر من لحظة. لحظةً نصحو شاهقين بعد أن داهمنا أحد الكوابيس، فهذا البيت بيتي، كل ركن فيه ينضح بعرق الجبين والصبر والكفاح، والمرأة جمعني بها الله قبل المودة والرحمة والعيال، ولستُ نادمًا على شيء. هكذا لا بدّ أن نطرد الرؤى الشيطانية كما نهشّ ذبابًا لحوحًا، ونلوم شراهتنا على العشاء ونشرب بعض الماء وننام، على أرض الحمّام، فاقدي الوعي أو نفقده قطرةً بعد قطرة، على صوت الأب: أنا يا إلهي المعترف بذنوبي فاغفرها لي، أنا الذي أسأت، أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت، أنا الذي... إلى أن يخلعوا الباب بأكتافهم؛ أكتاف الأهل القوية دائمًا، ربما تحسبًا لظروف كهذه. ويربطون الجرح بسرعة ويأخذونه إلى المستشفى. ليخطو فوق جرحه ودمه المتجمّع تحت رسغه كبركة راكدة، وليقول لنفسه عبر زجاج مغبشٍ الآن بأنفاسه، الذكاء أن نعرف كيف ننط من على سور التوفيقية الثانوية بنين، بمجرد أخذ الغياب، دون أن يرانا طلّاب الحكم الذاتي، وإذا قطع أحدهم طريقنا، تكفيه سيجارة هوليود أو حتى قلم جاف، المهم نخرج. نهرسُ الطعمية السُخنة في قلب بياض أرغفة الفينو ونأكل. نصفّر لهنّ فينزلن بعد قليل، منار ومنال، ابنتا الخياطة، التوأمتان، النحيلتان جدًّا، وربما معهما واحدة صاحبتهما، ينزلن بالفساتين فوق الركبة عارية

الأكتاف، بالضبط مثل سعاد حسني أو شمس البارودي، التي تكهربنا ضحكاتها في دفء السينما فنشدّ أيدي البنات إلى توتّرنا ليهدأ، ونضع الكُتب وأربطة العنق الزرقاء عند عم مِعبد في الكشك، ونشترى منه السجائر وجريدة واحدة لأفترشها، أنا؟ أنا؟، مع البنت التي أخفيتُ اسمها عن الجميع، حتى عندما سألتني الممرضة قبل خروجي عن اسم صاحبة الحكاية، لمجرد الفضول حقًا؟ أم أنها كانت تجمع أسماء المجرمات في مشروع إحصائي بلا معنى؟ لم أقل لها اسمها وجنات، البنت التي تقتحم عليَّ نومي مشيرة نحوي بإصبع الاتهام: أنا؟ أنا؟ لأغيب في بركة دم جديدة.

يبتسمُ إذن، لا لصورته المنعكسة على الزجاج المعتم، بل لصورةٍ أخرى بعيدة. جسد الولد يتحرك الآن بين صورة عينيه على الزجاج، والشارع يستحمّ بشمس أكتوبر الدافئة. والولد أشعل سيجارة أخرجها من جيب قميصه برشاقة لكيلا يلحظ أحد أنها فرط، وما زال ينتظر مستندًا إلى سيارة حمراء لا تزال بشوكها، لم تسدّد كل أقساطها بعد وغير مزوّدة بإنذار ليعقر ظهور الكسالى والخائبين. لا بأس، سيشتريه صاحبها قريبًا، فهو كما يبدو مشغول الآن وشارد الذهن لدرجة أن السكرتيرة أدارتْ موسيقى ناعمة وأرسلت الساعي في مشوار وهمي وفتحتْ زر قميصها الفوقاني، وتهيأتْ لتلعب الدور الذي شاهدته في التليفزيون مراتٍ لا تحصى، لكنها لم تحظ به قط.

البنت السمراء تقترب من تلميذها الفاسد، بعد أن خرجتْ مع أولى الدفعات الفارّة من مستعمرة العقاب الثانوية بنات. تقتربُ منه بخطوات أنثى ما تزال تحت التدريب. لا تعرف كيف تكتم اللهفة والفرح. همس مقاطعًا أفكاره الخاصة: كأن الطبيعي أن نكتم ونواري. لو أن السكرتيرة قريبة منه بها يكفي لاعتبرت كلامه هذا دعوة صريحة، ولاقتربتْ عندها منه بخطوات أنثى حقيقية

تتدّلل وتتمنع وتهاجم وتدافع وربما تنتصر أو تُهزم. لكن هناك، على بعد ثلاثة طوابق وأكثر من عشرين عامًا وسيارة سوزوكي حمراء كالدم، تقتربُ البنت الجديدة. المثلّث بين رقبتها وياقة القميص الأبيض يلتمعُ بحبّات عرق مدورة ولامعة في وهج الظهيرة. ليست العين ما يقوده الآن. يعرف، لحبّات عرقها طعمٌ ملحي لذيذ، وربما هي أيضًا تحفظ كل أغنيات حليم، تنقشها في الأجندة إياها مع كلام يمزّق القلب وزهور وطيور وسهام جارحة وكل عدّة الشغل الرومانسية الأزلية.

لا ينقص إلا أن يكون اسمها هي أيضًا وجنات، وعيناها رماديتان، وتلمّ تحت الإيشارب، هي أيضًا، شعرًا ثقيلًا وجعدًا بلون القمح. الشعر الذي سيبدأ في التساقط بعد ليلة دخلتها مباشرةً، ولن تفلح معه كل الوصفات والأدوية، حتى يهددها الصلع الكامل. ويقولون مسكينة، ويقولون حالة نفسية، الأهل أنفسهم بأكتافهم القوية وأصابعهم الغليظة. الأكتاف هزّوها بلا مبالاة وأكّدوا رأيهم بالأصابع، وقالوا ابن خالتها أولى بها من الغريب، وقالوا تلميذ خائب سيعملون له تمثالًا في التوفيقية الثانوية، وقالوا ستنسى. لكنّ الغريب يعرف طعم ريقها في فمه، رائحة المسرب الضيق بين نهديها. الغريب قطع شريانه بشفرة الحلاقة فانبجس دمه: نافورة مواعيد، حقول قمح خشنة، وردة سرية، من أجل وجنات.

مضى الولد الفاسد الجديد والبُنية الحلوة الجديدة وتابعهما بعينيه، فهل كان هو نفسه، الغريب عنها، سببًا ليتذكّر أحدهم ولدًا وبنتا وخيبةً أخرى؟ وما النتائج التي وصلت إليها الممرضة في إحصائها الخرافي، وقد أخذ فيه الرقم 16 وكيف ننجو من اللعبة التي تكرّر نفسها فينا بلا آخِر؟ كيف نقطع عليها السكة فلا تكتمل فينا أبدًا؟

ولفترة حاول الغريب أن يظلّ متسكعًا كتلميذٍ خائب، وقد

اكتسب تعاطف الجميع بعد مغادرة المستشفى. يبيعُ لصاحبة الاستوديو العجوز نشوة عابرة، مقابل الحشيش والبيرة. يرقص على أغنيات عدوية مع المقاطيع ويلعن أيام الحب. كأنّ الذكاء أن نكذب ونخون ونسرق، فنحتفظ بطفولتنا بعيدًا عن فخاخ "العمر يجرى" و"اعقلها وتوكل" و"بنت الحلال التي ترضى بالقليل". ألا نمشي أبدًا جنب الحيط ونذاكر وننجح ككلاب مدربة ومطيعة، ساهرين الليالي نحلم بالخلاص، على صوت الأب: أنا الذي غفلت، أنا الذي سهوت، أنا الذي اعتمدت، أنا الذي تعمّدت، أنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت. أنا؟ أنا؟ ونحسبها بالقلم والورقة من أجل المهر والشبكة ومن الذي سيشتري السجاد والنجف؟ لكننا نصير ممتنين لأكتاف الأهل العريضة وأصابعهم القصيرة التي أشارت لبر الأمان: "سينسى"، ويُحكم ربطة عنقه إلى الحد الذي يجعله بالكاد حيًا ويقف ليدافعَ بالفم الملآن عن ولد شاطر غيره أو مثله تمامًا، مزّق عقود الفل الفقيرة من غير أن يقصد طبعًا فماتت البنت، ماذا كانت تُدعى؟ وما الفرقُ الآن؟ وأهلها تنازلوا وتصالحوا، ككل الأهالي الطيبين، والباشمهندس سوف يُرضيهم، ثم إنه أقسمَ بكل الأيمان إنه لن يقود سيارته وهو سكران بعد الآن أبدًا. لتدور العجلات من جديد ويعود الجميع للنوم الوادع المطمئن، أمّا إذا اقتحمتْ نومنا بنتٌ شاحبة كذكرى، اسمها وجنات، وهى تشير إلينا متهمة - أم مستغيثة؟ - كأننا أسأنا إليها، اقتلعنا قمح شعرها سنبلةً فأخرى حتى اكتمل عُري رأسها لامعًا ومفزعا. "لا، لستُ أنا، لستُ أنا"، عندئذٍ سوف نستعيذ ونستغفر ونطرد الهواجس والأشباح بدعاء محفوظ وشربة ماء، ثم ننادي الولد الساعي ليشتم البواب أو السايس أو أيًا كان لأنه لم ينهر العيال وتركهم يوسخون العربة الجديدة ويجرحونها.

يناير 2000

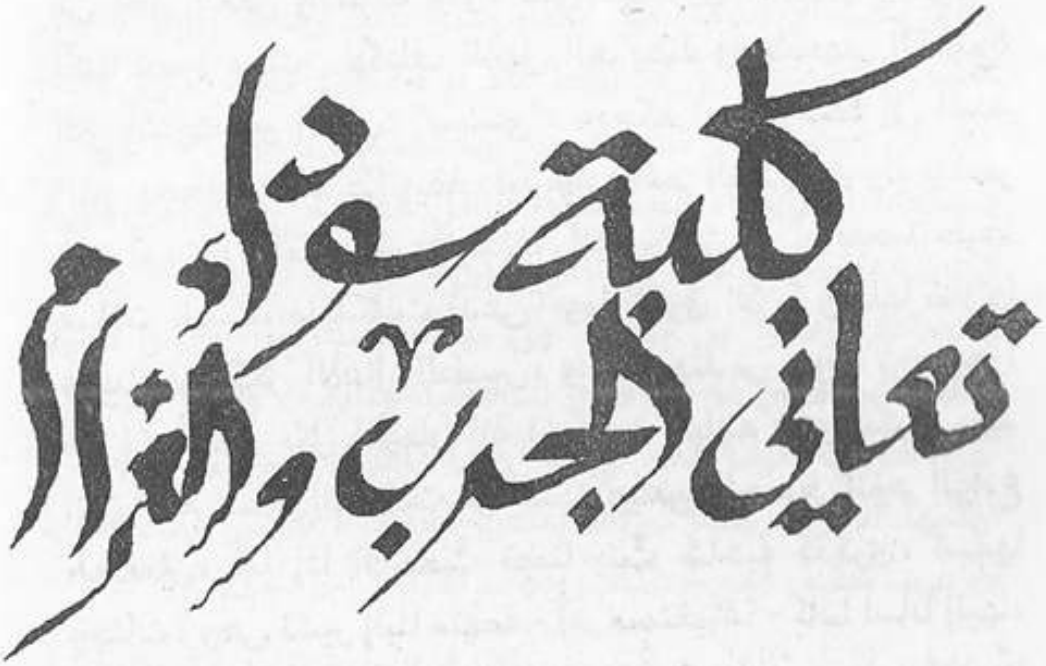

كلمة سواء
تعالي الحب والغرام

عندما يقع نظرنا عليها الآن بالصُدفة، فنراها وقد التفّتْ حول جسدها، وراحت تلعق جلدها الأجرب في استماتة، ربما لتخفّف من حرارة الوباء قليلًا، لا بدّ أن نترحم على أيامها الخالية، فأين نرجس؟ الكلبة الخفيفة المرحة، التي لا تستقر بموضع في الحارة، وساعةَ الجد تأكل الغرباء أكلًا. هبشتْ لصًا حاول تسلق شرفة الست نعيمة، أم بطة، وأمسكوه بفضل نرجس.

كنا نرمي لها الأشياء بعيدًا، خاصةً العِظام، فتجري لتلتقطها من الهواء مثل كلب صيد مدرّب، علّمها هذه الحركة زكي ابن عبده الفرّان، حتى أتقنتها تمامًا قبل ذهابه لتأدية الخدمة العسكرية بأيام. بعدها كانت تستقبله بمجرد أن يهلّ من على الناصية وهي تهز ذيلها، فيرمي بالكاب الميري في الهواء لتلقفه ببراعة بين أسنانها وتعود به لزكي الذي يضحك ويرحّب بها. كل ذلك كان قبل أن تأخذها لوثةُ الحب المفاجئة، فتهجرنا جميعًا وتسعى كالممسوسة وراء كلبٍ شريد، فاقع الصفرة، هزيل الجسد، وفوق هذا على جلده علامات المرض اللعين.

ذات فجرٍ بعيد جلبها سيّد القهوجي إلينا، صغيرةً وضامرة وتخشى كلَ يدٍ تمتدُّ إليها. قال إنه وجدها تئن عند الجامع الأزهر وسط أوحال المطر فأحس كأنّها تناديه. بيننا علمناها عدم الخوف من الناس، وكان رزقها موفورًا فكبرت بسرعة. لعبت مع الأطفال دون عضّ، وبالليل هي حارسنا الأمين. منفعة إضافية وجدها سيّد إذ كان يتخذها جسرًا لعبور الإشارات إلى سَمْع بطة، التي توجع قلبه بنظراتها وضحكاتها، إلى أن تقدّم لها الولد، فبطلتْ هذه الوسيلة

للتراسل، وإن بقيت (غلاوتها) في الفؤاد.

ويقال إنّ نرجس كانت تُطلق هبهبةً مثل النواح كلما رأت ملاك الموت يزور بيتًا من البيوت، فتوقظ المرأة زوجها مؤكدةً أن أحدهم لا بد توفي، مستشهدةً بنواح الشيخة نرجس، فيكمل حلمه ويأمرها أن تروح في داهية هي والشيخة وتخاريف النسوان، ثم يندلع الصوات الحياني من إحدى النوافذ. أمّا لقبها كشيخة فقد استحقّته عن جدارة ساعة الزلزال، حيث تنبأتْ به وملأت الدنيا نباحًا وقفزًا قبل الهزة مباشرة.

ومع أنها قد بلغتْ فلم تترك ناسها وأهلها من أجل نداء الغريزة. استغربَ سيّد منظر بقع الدم التي تخلفها مطرح نومتها وظنها جريحة أو بها شيء ما. سخرتْ حماته من جهله وأفهمته أن نرجس مثل كل الإناث، تحيض، وإن كان ذلك كل خمسة أو ستّة أشهر، وأعطته خرقة نظيفة ليضعها من تحتها خلال تلك الأيام. في مواسم بعينها، كان يناوشها عددٌ من الذكور التي تمر بالحارة، لكنها لم تطاوع قط أهواءها الحسية وتسلم لأحدهم، فيما عدا هذه المرة، الأولى وربما الأخيرة، ولنسأل أنفسنا كما نشاء: لماذا؟ لماذا ذلك الكلب الضعيف الأجرب بالذات؟ ولعلّ نرجس نفسها لم تعرف جوابًا لهذا السؤال، لكنها لبّت دعوته وذهبتْ معه كأن تاريخها معنا أصبح في لمح البصر نسيًا منسيًا.

معلّم المقهى قال إن كلهّن سواء، المرأة مثل الكلبة مثل اليمامة، ضلع أعوج يستحق الكسر، أي أنثى تجري وراء لذاتها من غير تفكير، ولا يهم شيء بعد ذلك. كانت نرجس هي الوحيدة التي تراه وهو يتوجّه لشقة عدوية زوجة ناصر المسافر إلى الخليج من زمان، ولم تفهم طبعا تردده في عز الليل على بيت غير بيته ومقهاه. محروس العجلاتي كان رأيه مختلفًا، كان ابنه محمد أكثر

عيّل في الحارة يلازم الشيخة ويلعب معها. وتعرفتْ عليه من رائحته عندما تاه في عيد الأضحى، وقادتْ أهله لمكانه مثل ملاك هادٍ حتى عثروا عليه بصحبة مجذوب معروف في الحى بإغواء الأطفال. قال محروس إنها نزوة عابرة وسوف ترجع للحارة كالكلبة، وساعتها نحاسبها. لكنّه كان أول من رقّ قلبه لها حين عادت ذات مغيب، مُنكسرة، تتدلى بطنها بثمرة النزوة العابرة. لم يلق أحدنا بحجر الملامة نحوها، فهي في الأوّل والآخر كلبة، وللحظة شملَ رجالات الحارة شعورٌ بالغيرة ونخوة أولاد البلد، وسرعان ما عادوا إلى سخريتهم المعهودة والضحكات الفاجرة.

لا يمكننا أن نعرف ما الذي جرى لها بعد أن هجرتْ الحي مع عشيقها. حتى لو مَنّ اللهُ عليها بنعمة التكلّم لما أخبرتنا بشيءٍ من تفاصيل حكاية غرامها القصيرة، لكن من السهل رسم قصص شبيهة بما يحدث في الأفلام القديمة، التي تمتلئ بالغواية ثم الهجران، وبالطبع الندم والتطهر بالألم والمعاناة. أما هي فقد استقرت بموضعها الأول: تتشمس أمام المقهى صباحًا، وتلتفّ حول نفسها تحت تاكسي عمران ليلًا، وتأكل بسرعة ونهم كل ما نرميه إليها، في صمت ووجوم ونظرة مُبللة بالذكرى، مثالًا حيًا أمامنا على عواقب الحب الذي ينصب أحابيله للجميع.

ودون أن يشعر بها أحد، وضعتْ فجأة جراءها الأربعة. فرحَ سيّد بالذكر الوحيد بينهم، لأنه سيملأ الحارة بزمجرة خشنة ومخيفة، ويعلّم كلاب المنطقة كلها الأدب، وينطّ على إناثهم، ولن يعود ذات يوم وقد تدلّتْ بطنه بعد أي نزوات عابرة. بعد الولادة مباشرةً بدأ الجرب ينتشر فوق جلد نرجس، فابتعدتْ في هدوء عن لحمها الضعيف والتزمتْ ركنًا ما بين بيت أم بطة والفرن. اضطررنا إلى إطعام الصغار، لأنها لم تلقمهن أثداءها التي نزت باللبن على التراب.

قال صبري، طالب العلوم، المتأنق دائمًا والمتعالي رغم فقر أسرته، عن تصرفها هذا إنها تخشى نقل العدوى لهم من خلال الرضاعة من أثدائها والاحتكاك بها، قال ذلك لسميرة بنت عم عمران الموظف بالمعاشات صباحًا وسائق التاكسي بعد الظهر، الحاصلة على دبلوم تجاري والمغرمة بالروايات العاطفية، وهما جالسان في حديقة الخالدين بالدرّاسة، لكنّ سميرة لم تتفق معه، قالت إنّ نرجس تشوب أمومتها شوائب من بقايا التجربة المريرة، لذا فهي تكره ذكرها اللعين الذي ضحك عليها في أبنائه ولذا لا ترضعهنّ، سخرَ صبري في نفسه منها وسعدتْ سميرة لاقتناعه بتحليلها الرومانسي.

البنات، بنات نرجس، اختفين واحدةً فأخرى. الأولى أخذها سيد القهوجي معه إلى المرج الجديدة، حيث دخلَ ببطة وفتح مقهاه الخاص بمعاونة حماته، أخذها لتذكره بأمها التي كانت ذات يوم رسول الغرام العبيط، أخذَها وأقسمَ أن يمنع أي كلب ابن كلب من الاقتراب منها، حتى ولو ربطها في مدخل البيت. الابنة الثانية طلعتْ لأمها وامتلكتها المحبة بعد أنّ مرّ بالحارة كلبٌ غريب وقضى معها الليلة ثم ذهبتْ معه في الصباح، لكنها كانت أسعد حظًا من أمها، فلم يكن ذكرها جريانًا، بل وقدّس حياتهما الزوجية واستقرا معًا في حوش بالمقابر، حيث نشأ، وتناسلا بانتظامٍ ومودة، وحتى الآن تصل أنباء سعادتهما للحارة. الثالثة مأساتها لا تُنسى، منذ مولدها وهى غريبة الأطوار، ساهمة لا تُقبل على الحياة، تستمدّ من حزن أمها المنزوية وجومها الخاص، تتواجد بأماكن عجيبة: تحت سرير عدوية أثناء ليلتها الأولى مع صبري، والذي قرر الاستجابة لها أخيرًا بعد زواج سميرة من أمين شرطة في قسم الدرب الأحمر. يُخرجها المصلّون ضربا بالقباقيب من ميضأة الزاوية لأنها نجسة. تتجوّل مع زوار بيت زينب خاتون

الأثري وتخطف بفمها دُمية من فتاة أجنبية وتهرب بها، ثمّ في فرن المخبز البلدي حيث انتهت حياتها بكارثة، بعد أن أوقدوا النار دون أن يلحظوا وجودها. حاول زكي، الذي علّم أمها التقاط الأشياء في الزمن الأول، أن يطفئ نارها ملقيًا عليها الماء بسرعة، لكن النار كانت قد أكلتها، وأصبحت نرجس بعدها خيال ظل لمخلوق يشبه الكلاب.

ثم رحلَ الذكر الوحيد بالأمل المتبقي في خليفة حقيقي، رحلَ وقد بدأ يظهر على جلده هو الآخر الجرب، ولم نستطع أن نفكر في السبب المفزع الذى قد يكون وراء إصابته هو أيضًا بالداء الذى كان الشيء المشترك بين والديه إلى جانب الحب سريع الزوال. نرجس الآن لا تنتمي لهذا العالم، ليستْ نادمة أو حزينة على شيء، ولا تنتظر شيئًا كذلك، وكل من يراها وقد راحت تعضعض مواضع الألم الحقيقي بجسدها كان يترحم على أيامها الخالية.

البعض لم يكن يشك أنها الآن ورغم فراق أبنائها لها كانت لا تزال تسترجع ذكريات تجربتها الوحيدة باستمتاع خاص، يماثل التذاذها بوجع العضّ على آثار الجرب، ربما لم يكن لديها سوى هذا الوجع الحسي اللذيذ ذكرى ملموسة من الحبيب القديم.

مايو 1997

محيا الشاعر

وهكذا لا بدّ أن أقابلها، هذه البنت، لعلّها تدرك أنّ من بيني وبينها ليس رجلًا عاديًا، لا يُولد واحدٌ مثله إلّا كل مائة عامٍ تقريبًا. يضحي العالم لأجله بملايين الأطفال. رضّع يموتون في المهد لأسبابٍ غامضة، أو صبيان وبنات يروحون في مذابح وكوارث طبيعية جدًّا. يضحي العالم لأجله بمئات العذارى، تناديهنّ الغواية فينمن عارياتٍ تحت القمر، ثم ينهضن مُبللات ومندهشات، ولا يفهمن السر حتى تتكوّر بطونهنّ فتلد إحداهنّ الشاعر أخيرًا.

وعليها هي أيضًا، هذه البنت، أن تتعلّم التضحية، مثلي، أنا التي عشتُ لأكثر من سبعة أعوام أتنفّس من أجله، أعرفُ كم حبّة عرق نضحتْ وتكورت ثم سالت على طول عروق رقبته وهو نائم حتى العصر. أعرفُ كيف يوقظني فجرًا، يحملني ويرقص بي عندما يبني بأصابعه وأعصابه بيتًا آخر بعد بيتٍ آخر. نَعم، فالمهم ليس أنا ولا البنت التي فضّلها عليَّ لتكملَ معه الحُلم، المهم أن يعيش وأن يكتب. ولكي يفعل يحتاج للحب، يحتاج لامرأة، بكل صبيانية ونهمٍ وطيش. واسألوني أنا، أنا التي طردتْ عنه الأشباح والكوابيس والديون لأكثر من ثمانين شهرًا، من أجل أن يصعد هو جدارَ الليل هادئًا ومطمئنًّا ومعجبًا بذاته لأبعد حد، يصعد ومن ثمّ يضيء.

وصدقوني، هذه البنت الحلوة من الممكن أن تدمّره بتفاهتها. فماذا تعرف هي عن الشعراء ونزوات الفنانين العجيبة؟ إنه يحتاج

أمًّا، تدلله وتهدهده، تخلع عنه ملابسه المتسخة وتحممه بيديها، ثم تغني له أغنية البلاد البعيدة الجميلة والولد الذي سيموت عندما يصلها فاتحًا؛ بلادِ الشاعر. يحتاجُ أمًّا تغفرُ له عندما يعضّ يدها ويجري منها متفلتًا وعاريًا تقريبًا، ليتسكع بين المقاهي والندوات، هاجرًا أمّه بالليالي والأيام، لكنّه يعود متعبًا مرةً أخرى ليجدها قد أعدّت طعامًا ساخنًا وسماءً جديدة، ليصعد. يحتاجُ أمًّا مثلي، أنا التي أنصتتْ لسر البدر فحبلت به وهنًا على وهن.

ليذهب أحدكم إلى تلك البنت الجديدة ويخبرها أنّ ما بيني وبينها ليس نزاعًا حول رجل والسلام، فهو ليس مجرد رجل، والمهم القصيدة. ربما لن تحتمل معه شهرًا واحدًا بالكثير، تعيشه على الكفاف، فتوقظه من النجمة ليروح يبحث له عن عمل. لن تفهم هي كيف اصطفى اللهُ من بين خلقه عبادًا وهمسَ في نفوسهم بالسر، من خلال الوحي أو من وراء حجاب. هؤلاء ورثة الأنبياء، لا يعرفون التزاحم والتناطح ولا يتشاجرون مع أي شخص تافه يعاكس المرأة التي بصحبتهم، فهم ليسوا كالآخرين ولا عمل لهم سوى تأمّل نسمة الصيف واصطياد ضباب الشتاء وشرْب الشاي والتدخين وفعل الحب مرة واثنتين وعشر، حتى المحاق.

وأنتِ يا بنتي يجب أن تهجري حياتك السابقة وتقطعي صلتك بأهلك ولا تهتمي بصاحباتك اللاتي وجدنَ راحة البال - حسب ادعاءاتهن - ولم تمتصّ أقراص منع الحمل ريقَ شبابهنّ. ولا بدّ أن تنسي أسماء مثل عمرو دياب ومصطفى قمر، وتعودّي لسانك على نطق تشايكوفسكي وكورساكوف. والعالم زائل وكل الأشياء تروح، لكنّ القصيدة تحيا، حتى لو مات هو، وكأنه لا يموت مع هذا، فتأمّلي، يتجدّد كل ثلاثين ليلة، انظري، ها هو في البعيد

يناوش البحار ويتلاعب بأجساد البنات ويرشد التائهين في صحاري الروح، ويسقط ليولد من جديد. وأنتِ لازلتِ صغيرة ومن الممكن أن تتعلّمي كل شيء؛ الطقس والقرابين، ولا أحد يفهم سر الوحي إلّا مَن باع نفسه للنور والطريق الطويل ومَن أنصتوا للصمت، فلا أصبحوا ملائكة ولا عادوا كما كانوا. أطلقوا شعرهم ولحاهم ويسهرون الليل وينامون النهار وتذبل وجوههم من قلة الأكل ويتجادلون حول المجتمع والذات واليقين. في الأوّل لن تفهمي شيئًا، ومع الوقت ستتعوّدين، بل وتتكلمين مثلهم وتحبينهم بجنون. هؤلاء يا بنتي هم ملح الأرض، وهو ليس مجرد رجل عادي لكي نتنازع عليه، فخذيه ما دام قد اختاركِ، لكن احتملي من الآن الرسالة المقدسة في معبد الكبش المبارك، مثلي، أنا التي جلست لأكثر من ألفين ليلة أتابع فراشات يديه تدور حول جسده وهو يقول القصيدة، أكثر من ألفي خمسمائة وخمسة وخمسون ليلة أرتّق ثيابي الداخلية وقد اهترأت أنسجتها الناعمة دون أن أفكر بمضايقته، فلا تخجلي من عُريك واشتغلي من خيوطه الفضية ثيابًا لا تبلى ومُوتي فيحيا هو، والقصيدة.

وإذا طلبَ منكِ أن تذهبي يومًا ما فاذهبي بهدوء وخفّة، ودون أن تُشعريه بأي أحمال ثقيلة أو تُسمعيه كلمة جارحة، احملي متاعك الخفيف وارحلي وباركي البنت الأخرى التي توّجها أميرةً للحلم. ويا ليتكِ تنصحيها وتخبريها بما تعلمتيه من نومك في العراء ليلةَ التمام، علّميها وجهزيها - كما أفعل الآن معكِ - لكي يعود هو مكتملًا ومُشعًا بلا انتهاء.

يونيو 2000

في الستين ربيعا

-1-

بين بيوت منطقة الوايلي الفيحاء انتشرت رائحة المجاري الضاربة في شارع عَشَرة.

كادتْ تنزلق عندما منحها ذراعه، تعرفتْ على وجهه وابتسامته ووافقت على مضض أن يتجها معًا إلى مكتب البريد ليتسلما معاشيهما.

انتظم العجائز في طابورين، راح يمتصّها بعينين ضعيفتين، خمَّن أنها ليستْ على ما يُرام. ألف سلامة يا ماء المحاياة، متى يطاوعه اللسان يا رب؟

بعد حوالي ساعتين من الانتظار دون أن يتحرك أي شيء عدا الشمس فوق الرؤوس، يترنّح جسدها الملفوف في السواد وقبل أن يصل لتراب الأرض كان عم خميس، أقوى الشيوخ والمُحب الصامت قد سنّدها. تجمعوا حول الست زمزم وأحكموا الدائرة.

-2-

استيقظتْ هذا الصباح فزعة، فقد أحسّت به يحوم حولها، زوجها الثاني والمتوفى من عامين وزيادة. لماذا ينقلبُ عليها الآن وقد عاش كلٌ منهما وفيًا لأحقاد الآخر. كانت تُذكّره دومًا بعقوق أبنائه من زوجته الأولى وبضعفه أمامهم، وتدوس على قلبه حتى يبكي، وإذا أراد أن يريح رأسه على صدرها نهرته وأبعدته، فرائحة البول تفوح من جلده مهما اغتسل بعد يوم عمله في المرحاض العمومي. عندها كان يُجن ويصرخ ويعايرها بعقمها وأن قلبها

لذلك لا يعرف ما الحنان، وأنّ للنساء حق أن يبعدن عنها عيالهنّ ويغلقن في وجهها الصدور والأبواب. كانا يتشاجران بوتيرةٍ منتظمة، كلٌ مع الآخر، وكلٌ مع أحلامه ورؤاه، مع ناموس الصيف وصوت أمطار الشتاء ومع الدنيا بحالها ولا يهدآن.

بعد موته عثرت على كنزه الفقير، حقيبة جلدية قديمة مملوءة بقطع النقود المعدنية التي جمعها من محصورين ألجأتهم إليه حاجتهم الملحّة، يجلس على باب الدورة الخارجي، وقبل أن يخرج الواحد منهم يمد في طريقه طبق ألومنيوم صغير، يرفعه بكبرياء مزيفة، قليلون من جرأوا على رفض الدفع.

بمجرد أن فتحتْ الشنطة انتشرتْ رائحته حولها فسارعت بتجميد النقود من بائع البكيا نفسه الذي اشترى بقية مُتعلقات المرحوم. أضافتْ المبلغ لدفتر توفيرها واستأنفتْ طقوسها اليومية المعتادة، كما لو أنّ هذه الست ولدتْ أرملة ووحيدة: الصحيان قبل طلوع النهار، ملعقة عسل أسود على الريق تجلو الصدر ثم خلطة الأعشاب المغلية بعدها تنظّف المعدة وتنشط القلب والذاكرة، والعكوف على الصلاة في نشاط رياضة بدنية أكثر منها روحية، ودائمًا وأبدًا المشاكسات مع نسوان وعيال الحارة، جمعيّات الفلوس التي تنظّمها بين بائعات السوق والتجّار الصغار وتمسك بخيوطها بين أناملها مثل نسج العناكب.

هذا الصباح تهتزّ عاداتها للمرة الأولى. طيف الزوج الراحل شقّ عليها منامها مدفوعًا برباط الكراهية المقدّس بينهما، ارتبكتْ، إذ كيف تردّه في سلام من غير أن تستفزه ضد أحلامها فلا يغمض لها بعد ذلك جفن؟ وكأنّه قرّر مطاردتها لما لا نهاية، بدأ يحطّ قرب وقفتها في الطابور، لم تره، عرفتْ بقدومه حين هاجمتها الرائحة القديمة بوضوحٍ قاتل. اكتشفت أخيرًا أنها مهما كانت

ولية ومكسورة الجناح، فغابت عندئذٍ في إغماء خفيف. تجمّعوا حولها وأحكموا دائرة من أسود الحداد والتجاعيد وأطقم الأسنان والعكاكيز والشهقات، لكنّ أقوى العجائز والمحب الصامت سندها وأخرج من جيبه منديلًا ورقيًا مغلّفًا من شركة الطيران التي يعمل فيها حفيده، ومسحتْ إحدى الأرامل بالمنديل المبلل بالعطر على وجهها وعنقها الذي لم تفسده السنين بعد.

ابتعدَ الطيف بما يكفي لأن تفتح عينيها وتقوم، لتتسلّم معاشها من غير انتظار شاكرةً بجفاء، وليصرّ عم خميس على توصيلها لحد البيت. قالت ربما وجود وَنَس معها يمنع الروح من معاودة هجومها. مشيت بجانبه ساكتةً، فيما راح يتحدّث عن الاهتمام بالصحة وألّا يشغل الواحد باله بأي حاجة في الدنيا. حدّثها عن برامج التليفزيون والأفلام القديمة، وطبيب دار المناسبات الشاب ابن الحلال. في شارع الساقية توقّفت فجأة أمام بيتها وسلّمتْ عليه في صمت. دخلت وهو لا يزال واقفًا.

-3-

من كل صفقة يخرج خاسرًا وسعيدًا. برغم صمتها وجفائها عاد للبيت وهو فرحان يترنّم: "طاير يا هوى، طاير ع المينا". المهم أن ذراعه سندت جسدها مرتين في نهارٍ واحد، يا خبر أبيض.

وجدَ علاء، ابن ابنه الكبير، لا يزال نائمًا، يتوارى من الشمس والضجيج دافنًا رأسه تحت المخدة. راحَ يلكزه برفق ليصحو والولد يسب العيشة ومن يعيشها، ويهدّد جده لو لم يتركه ينام فلن يرافقه غدًا إلى سوق القلعة ولن يُريه المجلات الجنسية التي (يُسلكّها) من المطار. لم يعبأ عم خميس بهذا كله، كان مصرًا أن يخبر حفيده بتطوّرات غرامه المكتوم، وما أن سمعَ علاء اسم

الست زمزم حتى انتبه وقعدَ على حيله مُشعلًا سيجارة وأنصتَ للصوت المتهدّج بأفراح الحب.

كأنّ علاء هو ربحه الوحيد من صفقة حياته، بعد أن قطّع أبناؤه أوصاله واقتسموا برضاه مكافأة نهاية الخدمة والبيت وكل شيء، تاركين له رأسمال صغير يتاجر به في طيور الزينة، أمّا المرأة التي كانت تتلاعب بهم مثل عرائس ورقية بين يديها فقابلت وجه كريم. عاشت قسوتها على قدر حنانها، لم يعرف عم خميس يومًا كيف يأكل أفراد هذه القبيلة، فقط يذوّب روحه أمام ماكينة كيّ أتواب القماش في المصبغة، ثم يترك لها كل شيء ويأخذ مصروفه كالجميع. يطيعها ويرضيها ويحبها أكثر بعد كل همٍ ينزاح أو أزمة تمر، لكنه لم يستطع قط أن يمنع نفسه من التباطؤ أمام محل العصافير ليُشبع نظره منها. تعوّدت عليه البائعة، كلّ يوم في نفس الموعد يحملق لدقائق، ثم يدفع خطواته على الطريق من جديد، لاعنًا محمد رشدي الذي أفسد الأغنيات الحلوة القديمة لمّا أعاد غناءها وقد شاخ صوته: طاير يا هوى، طاير ع المينا.

كيف طاوعَ علاء جده طوال هذه الحكاية كلها؟ لم يكن يسخر من حبّه بلا شك، فقط لم يكن يصدّق. حتى وهو ذاهب معه إلى بيت الست زمزم ليخطبها لجده لم يكن يصدّق. كأنه دخل رواية قديمة أو أغنية ينام لمّا يسمعها. هذا الشك ضاعفَ رغبته في إكمال الأمر للآخر. أخذَ جده إلى الحلاق وكوى له بدلته الصيفي سمنية اللون، ورفضَ عم خميس أن يضعَ عطرًا آخر غير كولونيا الليمون التي يقدّسها من سنين. ثم نزلا.

استفزّها الموضوع من أوّله إلى آخره: ابتسامته البلهاء وكلامه الحلو والرائحة الفاقعة التي أصابتها بالغثيان. تكلّم قليلًا ثم عاد الصمت يغلّف حجرتها المعتمة بالطابق الأرضي. على موقد جاز

يغلي ماءٌ في وعاء كبير، وصورة لها معلقة على الجدار وهي أصغر وأجمل، لكن بنفس رداء الغربان الذي لم تتخلّ عنه قط. صوت العيال الذين يلعبون تحت شبّاك حجرتها كان واضحًا ومُشجّعًا على معاودة الاقتراب من الموضوع. نهضتْ وفتحت الشباك برفق، ثم رفعت من على النار وعاء الماء الساخن وألقت به فوق العيال الذين عَلَت صيحاتهم الملتاعة. شهقَ علاء وهبّ واقفًا بينما ألجمت المفاجأة جده، عادت وكأنها لم تفعل شيئًا. قالت: عيال أغراب ما يعرفونيش. فهمَ علاء أن في هذا الكلام تحذير مغطّى لهما، وهمسَ لجده أن يقوما ويذهبا قبل أن تسلخهما لتتعشّى بهما. لكنّ عم خميس قرّر أن يغامر في أهم وآخر صفقات حياته، أن يتقدّم إليها، لأنّ هذه المرأة أشد بؤسًا من أن تُترك لحالها وأنها تحتاج إليه أكثر مما يحتاج هو إلى عيونها الناعسة وأطرافها الملفوفة. عندما فاتحها بغرضه زارعًا بصره في الكليم الصعيدي أكلها الغيظ، وهكذا وافقت لسببٍ واحد، أن تلقّن هذا الطفل ذي الشارب الأبيض معنى الإساءة، للنَفس وللناس وللسماء والأرض.

لم تغلق حجرتها وتروح معه بيت عزبة الجزّارين إلّا بعد أن وافقَ على كل شروطها؛ أن يبقى زواجهما سرًا لكيلا ينقطع معاش زوجها، وأن يعود حفيده علاء ليعيش مع أسرته بالطابق الثالث، تاركًا لهما شقة السطوح، ثم إسورة ذهب ثعبان عيار 21، فوجئتْ بالزفة التي أعدّها علاء وأصحابه تحت البيت، فبكت واعتبرت في هذا إهانة لها، فأسكتهم العريس وصرفهم بأدب. أفزعتها أقفاص العصافير وأقسمت أنها لن تدخل هذه الشقة وفيها عصفور واحد، فخرجت الطيور المسكينة لليل السطح ودخلت العروس. كانت مستعدة لتقبّل كل شيء، حتى عدم رضا أولاده الكبار عن زواجه، لكن ما لم تتصوره أن يقترب منها في النهاية

ويمر بيده على شعرها المخضّب. كادت أن تنهره لولا أنها فوجئت بعينيه مغسولتين بدموع حيّة. قالت ربما ينتهي الأمر بملامسات بريئة وخلاص، لكنّه أعدّ لها هدية حقيقية بعد المنشط الذي جلبه له علاء. لم تتخيّل ولو للحظة أنه سينام معها، وكادَ يتوقّف قلبها لما استعادت الطعم القديم للجماع. كأنها المرة الأولى بكل فرحها وخوفها، وحقدت عليه كثيرًا، إذ كيف استطاع أن يقي نفسه من السوس الذي ينخر الصدور كلها؟

-4-

تتغيّر الأحوال كالمعتاد. مع دخول الشتاء عادت العصافير لأماكنها بعد مشاجرة خفيفة، ورجع علاء إلى غرفته المنفصلة وسهرات السطح مع أصحابه. شيئًا فشيئًا انفرط عقد العادات المقدّسة للست زمزم أمام فوضى الحب. حاولت تحريضه ضد أبنائه فأخذها معه إلى فصول محو الأمية، وجعلها تحفظ معه أغاني محمد رشدي ومحمد فوزي وفريد الأطرش. وكان الجميع يتابع الحرب الخفية بشغف الأطفال، حتى موظّف مكتب البريد علمَ بأمر زواجهما ولم يهتم بأن يبلغ عنه. والبنت التي تعلمهما القراءة والكتابة في دار المناسبات باعت لهما طقم ملاءات وردية على أقساط مريحة. وعلاء، حتى علاء بدأ يصدّق أن الواحد يُولد كل نهار من جديد. وعندما هاجمت عم خميس أزمة قلبية بعد عكوفه على المنشطات، سارعت ببيع الإسورة الذهب لكي يدخل مستشفى خاص، حتى مدخراتها القديمة لم تبخل بها. سهرت بجانبه تبكي في صمت، وامتلأت خوفًا من أن تترمّل من جديد بعد أن رزقها الله أخيرًا بالعيّل الذي حُرمت منه طول عمرها، عيّل عجوز له خصلة شعر خفيفة مثل قطعة غزل البنات التي تذوب

تحت اللسان. حين أفاقَ مسح دمعتها وطلب منها أن تُغني له أغنية عرباوي فاستجابت متلعثمة.

فرشتْ الملاءة الجديدة وخضّبت شعرها بالحناء السوداني. اشترت له زجاجة جديدة من كولونيا الليمون التي تردّ له الروح. خرجَ من المستشفى بعد أن وعدَ الطبيب ألّا يقرب المنشطات مرة أخرى، كان صادقًا في وعده، لأنه لم يعد محتاجًا - ولا هي أيضًا - إلى الوَجَع الرخيص يهز الجسم للحظات، حتى يشعرا بالحنان.

كان الناس في الوايلي يتناقلون أخبار العجوزين ويضحكون ثم يصمتون في خجل. علاء يخاف أن يموت أحدهما فيُجن صاحبه، فهو يحسّ منذ الآن بملاك النهاية يحوّم حول أقفاص العصافير. كيف يقول له أن يبتعد ويتركهما في مداعباتهما الطفولية التي لا تنتهي، حُب بلا تعب ولا ذروة ولا هدف منه غير قتل الخوف والوحدة. ربما يستجيب الملاك لدعائه ويأخذهما معًا في سلةٍ واحدة، كأن يعود من عمله ذات صباح فلا يسمع للعصافير أي صوت، يدق باب جده فلا يجيبه أحد، ثم يعثر عليهما متعانقين شبه عاريين وغائبين في إغفاءة طويلة.

سيدفع الباب برفق فتنتشر رائحة كولونيا الليمون في المكان، سيتأكد من أنه لا يحلم أو يشاهد فيلمًا أجنبيًا، ثم يغطّيهما، فيما تتسرّب الرائحة الحلوة القوية بين بيوت منطقة الوايلي الفيحاء.

مرة للخونة

تعالي نجرّب، ليس لدينا ما نخسره يا بنت الحلال. نهجر المقهى ورفاق السوء والأفكار كلها، لنصنعَ بيتًا خاصًا، مثل بيوت أهلنا، لنا، أنا وأنتِ فقط. تعالي نتزوّج يا صفاء.

لا تنزعجي هكذا وخذيني على قد عقلي يا ست البنات. ألا تؤمنين مثلي بالخيانة؟ طيب، تعالي نخون الخيانة نفسها هذه المرّة. نكون أشدّ جنونًا وتطرفًا من كل ما سبق. هل تنتظرين أحدًا؟ سامية، الرسّامة؟ سأُنهي كلامي قبل أن تأتي. ولّعي لكِ سيجارة. سأحكي لكِ شيئًا عن الطيور، طيور من نوعٍ ما، فريدة ومخادعة، نظنّها أليفة وهي ليست كذلك. لعلّ اسمها طيور العصيان أو الخروج. نظنّ أننا نربي أفراخها النحيلة الضعيفة، بزغبها الخفيف ومناقيرها المنمنمة، داخل أقفاص عقولنا، تصوّري. هذه الطيور كبرت الآن واشتدّت أجنحتها، بل أصبحَ لها أنياب ومخالب، ألم تنهشني؟ ألم تنهشكِ؟ ليس تلاعبًا بالكلمات واللهِ، فلستُ أديبًا واعدًا كما يقولون عنكِ، ولا أودّ أن أكون، فالشعر يكذب والكلام قناع. لكنّ الحقيقة بسيطة مثل طابع الحُسن على ذقنكِ، الحقيقة مخيفة مثل قوس حاجبكِ. إذا كانَ كلٌّ منا يريدُ الآخر إلى هذا الحد فلمَ لا؟ لن تنهدّ الدنيا، لن تتعثّر حركة التاريخ أو ينهار مستقبل النسوية. يا ماما لا سخرية ولا حاجة، ولكّني أنا، المتمرد العتيد، أريدكِ أكثر من شرارة الثورة، أريدكِ أكثر من الكلمات المصقولة مثل أقنعة تحفي أقنعة فوق أقنعة. الكلمات

كلها طيبة، لكنها بعيدة، ليستْ بهذا القرب مني، لا أشمّ عبير عطر "كنزو" الفرنسي يفوح من ناحية شعرها المهوّش حول تفّاحة الوجه. لا تسهر لتترجم حكايات إيفالونا عن الإسبانية حتى مطلع الفجر. والأهم هذه الكلمات لا تعرفني، أنا العبد الفقير العادي.

ونحنُ لم ندجّن تلك الطيور، بل على العكس. خلّي بالك السيجارة ستسلع أصابعكِ. تأخذين واحدة أخرى؟ على راحتك. سامية تأخرت؟ لا بأس، ربما تعثّرت في صاحبة قديمة، بنت حلوة كانت موديلًا لها ذات يوم. لا تزعلي مني وحياة النبي. معكِ حق، قليل الأدب أنا فعلًا. المهم أن تلك الطيور هي التي تعهدتنا بالرعاية. عصبت أعيننا، وسحبتنا كعميان وراحتْ تدربنا كببغاوات جادة وشرسة. نشقشق ونزقزق: العالم يجب أن يتغيّر، يجب أن يتغير. الأهل رجعيون ولا بدّ أن نتمرد، أن نتمرد. الواقع قبيح، قبيح. لكنكِ أنتِ جميلة، أجمل من قميصٍ جديد، ومن أغنية هذه ليلتي، وكل نساء محمود سعيد. أنتِ جميلة وأنا أريدكِ ولم يلقّني أحد همساتي هذه. فلم أعد الببغاء البائس، يتلاعبُ به بحّارة من كل البلاد وبكل اللغات. الببغاء لو يقع في خيبة الحب مرة يكف عن الكلام ويكتب قصيدته هو. كلمة واحدة أو حرف واحد. وعلى فكرة أستطيع أن أدبّر كل شيء في ظرف شهرين أو ثلاثة، فقط لو تطاوعيني. مللتُ اللقاءات العابرة والصُدَف العشوائية. لم أعد أطيق شقشقات العبث على هذا المقهى، كلّ ما فيه يثير غثياني؛ الأجانب الباحثين عن جسدٍ لليلةٍ واحدة، تجّار الكلام يبيعون ويشترون بالخسارة، المخبرون، أرباب المعاش، رفاق السوء، نشارة الأرضية، رغوة البيرة، الأفكار المشاع كلها.

لا تسرحي ببصركِ هُنا وهناك، انظري إليّ، هاتي عينيكِ في

عيني واسمعيني. نحن كبرنا على شقق الأصدقاء والغرباء يا أخت روحي. أريدُ أن أنصت لنبض جسدك أنت. لا أن أرهف السمع ناحية الأبواب خوفَ الفضيحة، وهل دقّ أحدُهم الجرس أم هذا صوت العصافير أم كنا نتّوهم، وترتدين ملابسك بسرعة. بسرعة! أين إذن النور والظل على نعومة جلدكِ؟ أين الدقائق التي يتسّرب خلالها كلٌ منا إلى الآخر؟ أين العسل واللبن؟ أين سكرات اللذة، حشرجات الموت؟ تكتمينها وأكتمها. ألم تنهشكِ؟ ألم تنهشني؟ الأفراخ التي كبرتْ فجأة دون أن نشعر، ربما كنتِ أنت في ندوة فاصلة تقاتلين من أجل نون النسوة وكنتُ أنا في موعد سرى مع كوادر جديدة، طيورٍ أخرى نعصب أعينها ونجعلها تقفز في أقفاصها المزينة، لتصيح جادة وشرسة: الأنثى مركز العالم، العالم لابد أن يتغيّر، يتغير هيكل الطبقة لكن الجوهر واحد، واحد هو، هو الطريق ولا طريق سواه.

لا سمحَ الله. لا أشكك في أي شيء. بل على العكس، أدعوكِ إلى مذهبٍ قديم وجديد وتحبينه أكثر من حكايات إيزابيل آللندي اللذيذة. نعم، الخيانة، نكران الجميل، التشبث باللحظة. تعالي نضحك على المجتمع فنطيعه ونطاوعُ الناس الذين طالما أسميناهم عاديين وبسطاء ونطوّع للظروف أهواءنا الخاصة وأحلامنا الليلية حتى. نهجر كل هذا مرة واحدة وإلى الأبد. امسحي أنفكِ من هنا، آه هكذا، خلاص. نهجر الجينز الكالح الذى يكسّر استدارتكِ ويعتصر خصيتيّ، الكتب التي شبعت موتًا، المواعيد المقدسة والالتزام تجاه الشوارع والمشاوير. لا نسهر ولا نشرب ولا نسب الحكومة. لعلّ السماء عندئذٍ تهبنا نورًا إضافيًا يطلّ من ملامحنا، صدقي يا جاحدة ولو غلطة. أعرف

أنها وصلتْ، دعيها تنتظر قليلًا مثلما انتظرتِ أنت، لن تجلس بمفردها طويلًا. معارفها أكثر من الهم. تأخذين قهوة؟ سأنادي ميلاد. بالمناسبة ميلاد مجنونٌ بكِ. هو أيضا؟ ولمَ لا؟ أليسَ لحمًا ودمًا مثلنا جميعًا؟

اسمعي كلامي يا صفاء. انتهزي الفرصة. أنا لُقطة. الواحد لا يُجن هكذا كل يوم. قدميني لأهلك رشوةً لتكسبيهم من جديد. نسافر السويس معًا كمخطوبين بجد، وأقول لعم عبد الله أنا طالب القرب فعلًا يا حاج. صدقني، لستُ ممثلًا بارعًا، ولم أبادلها سوى قبلات المحبين البريئة ورقمي في ترتيب علاقاتها ليس التاسع، لكني الأول والأخير. لا تخافي، لن أحدّث أخاكِ الصغير عن الاستغلال وفائض القيمة ولن أعرّى بعينيّ أختك المتزوجة.

هذه هي الخيانة العظمى يا بنتي. أراكِ من الآن ست بيت درجة أولى، منتفخة البطن بالحمل على الدوام، قرفانة وضجرة وقاسية على العيال وأبيهم، دائمة الشكوى من وجع الظهر والرجل النمرود وأصحاب مكاتب الترجمة الذين يشترون الصفحة منك بجنيه ونصف ليبيعوها بخمسة والأسعار ومسلسلات رمضان والدنيا التي خدعتكِ. أمّا أنا فأقبلُ أي عمل بأيّ شروط؛ مصحّح لغوي لا يعنيه أي مضمون للكلام، والمهم استقامة النحو والصرف. أو أبيع الأبحاث للجامعيين، أو المتعة لحيزبونات الوسط الثقافي. أبيع أي شيء لأعود آخر النهار إليكِ هالكًا مثل أي نمرود وغلبان؛ حُطي البطيخة في الثلاجة، هاتي الماء والملح من أجل قدميّ، شيلي الأكل، العيال ناموا؟ طيب تعالي.

تعالي نجرب ولن نخسر شيئًا، اتركي أصابعك في يدي، لن آكلها.

ماذا سنخسر غير الفوضى والتوتر ووجبات الشارع السريعة عديمة الطعم. نخسر ليالي الجوع إلى بعضنا البعض. الليالي الكافرة. ألم تنهشكِ؟ ألم تنهشني؟ ونعاند ونقول الاستقلال بالدنيا بحالها ونحن هكذا أحرار، لا تسجننا علاقة. نحن أحرار فقط في اختيار نوع السجن. يأتي لكلٍ دوره ليختار زنزانته المزينة ليقول: أكون ديمقراطيًا - محافظًا - تنويريًا - ماركسيًا - فوضويًا - مجاهدًا في الله - مُحبًا للناس - مجنونًا بالعلم. يأتي لكلٍّ دوره ليكون بوقًا - شمعةً - سيفًا - نارًا - وردةً - يمامةً - كتابًا مفتوحًا. يا خيبة الطيور، السجن أكبر من العالم.

اشربي قهوتك وفكري جيدًا في كلامي. معذرة، أنا ثرثار كبير، لكن لا بدّ أن أثرثر وأوجع دماغكِ لأفهم أنا نفسي ما أودّ أن أقوله. فماذا ستخسرين أنتِ غير الإرهاق المستمر والأرق المزمن والتشوش والصداع والخوف من عودتك وحدكِ متأخرة؟ تخسرين من يمدحون قصائدكِ المدهشة ووعيك الحاد، لمآرب أخرى تعرفينها، حيث تضيع الدهشة ويغيب الوعي، تخسرين سامية المسترجلة. انظري كيف تشدّ أنفاس الشيشة بغضب وغل. طبعًا هي تنتظركِ لتلومكِ على تركها تنتظر كل هذا الوقت، وتعود تشدكِ إليها وتطيّرك وتعصب عينيك وتبتز مشاعرك - وجسدكِ أحيانا - في بيت المغتربات الذي تشهد حيطانه على مصاصة الدماء هذه. هي يمكنها أن تجد ضالتها لدى أي واحدة غيركِ. أي ريفية ساذجة تبهرها أضواء المدينة. لكنى أنا لا أريد غيركِ. أنت ضالتي التي لم يلقّني اسمها مخلوق، وأنتِ جميلة، أجمل من مولد السيدة ومن سيجارة الصبح وفيلم داوود عبد السيّد الجديد. وإذا جاءوا يزفوننا للعش السعيد. جرّبي حمرة الخجل

والخوف ولا تخجلي أو تخافي منها. ادخلي برجلك اليمنى وربما نجد أن أهلك، البسطاء والعاديين، قد وضعوا لنا على المخدّة المنديل إياه، القماشة البيضاء الرقيقة، راية العفة. عندئذٍ ستحدث المعجزة، لكي نسترد إيماننا، سنقطف معًا وردةَ البكارة التي ذبلتْ منذ سنوات على أسرّة مؤقتة. تفتحتْ من أجلنا فقط، وردة الآن: تاج الخونة.

أبريل 2001

روائي ومترجم مصري من مواليد 1977، تخرج في جامعة الأزهر، كلية اللغات والترجمة، قسم اللغة الإنجليزية، حصلت روايته "رجوع الشيخ" على المركز الأول بجائزة ساويرس 2013، ووصلت إلى القائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية.

صدر له:

"في الوصل والاحتراق" قصص قصيرة، فازت بالجائزة الأولى في المسابقة الكبرى للأدباء الشبان التي عقدها صندوق التنمية الثقافية، وصدرت عنه 1999.

"أطياف حبيسة..." نوفيلا، صدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة 2000.

"وردة للخونة " قصص قصيرة، صدرت 2003، عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة إبداعات. وصدرت طبعتها الثانية 2016 عن دار الربيع العربي.

"بعد أن يخرج الأمير للصيد" متتالية قصصية، عن دار ميريت للنشر 2008.

"شبح أنطون تشيخوف" مجموعة قصصية، عن دار فكرة للنشر 2009، صدرت طبعتها الثانية عن مكتبة الأسرة عام 2012. حصلت على المركز الأول بجائزة ساويرس 2011.

"رجوع الشيخ" رواية، عن دار روافد للنشر 2011، اختيرت في القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية، كما حصلت على جائزة ساويرس المركز الأول في الرواية للكتّاب الشبان عام 2013.

"كما يذهب السيل بقريةٍ نائمة" مجموعة قصصية، عن دار ميريت 2014. حصلت على جائزة أفضل مجموعة قصصية في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2015

وفي **مجال الترجمة** صدر له:

كيف تعيش حياة ذات مغزى؟- الدالاى لاما، عن دار نشر هيفن.

رواية "اختفاء" للكاتب البريطاني من أصل ليبي هشام مطر عن دار الشروق للنشر.

الرواية المصورة "فلسطين" للأمريكي جو ساكو عن دار التنوير للنشر.

رواية ظلال شجرة الرمان لطارق علي عن دار الكتب خان للنشر.

كما أنه يدير ويقدّم ورشة أدبية للكتابة القصصية، تحت عنوان "الحكاية وما فيها"، منذ عام 2009، وتخرج منها بالفعل خمسة دفعات، حصل بعض خريجي الدفعة الأولى على جوائز أدبية مرموقة.

وردة الخونة

اشربي قهوتك وفكري جيدًا في كلامي. معذرةً، أنا ثرثار كبير، لكن لا بد أن أثرثر وأوجع دماغك لأفهم أنا نفسي ما أود أن أقوله. فماذا ستخسرين أنت غير الإرهاق المستمر والتشوش والخوف من عودتك وحدك متأخرة؟ تخسرين سامية المسترجلة. انظري كيف تشدّ أنفاس الشيشة بغضب وغل. طبعًا هي تنتظرك لتلومك على تركها تنتظر كل هذا الوقت، وتعود تشدك إليها وتطيّرك وتعصب عينيك وتبتز مشاعرك، وجسدك أحيانًا. هي يمكنها أن تجد ضالتها لدى أي واحدة غيرك. أي ريفية ساذجة تبهرها أضواء المدينة. لكني أنا لا أريد غيرك. وإذا جاءوا يزفوننا جزبى حمرة الخجل والخوف ادخلي برجلك اليمنى وربما نجد أن أهلك، قد وضعوا لنا على المخدّة المنديل إياه، القماشة البيضاء الرقيقة، راية العفة. عندئذ ستحدث المعجزة، سنقطف معًا وردة البكارة التي ذبلتْ منذ سنوات على أسرّة مؤقتة. وردة الآن: تاج الخونة.

محمد عبد النبي

روائي ومترجم مصري من مواليد 1977، تخرج في جامعة الأزهر، كلية اللغات والترجمة، قسم اللغة الإنجليزية، حصلت مجموعته "شبح أنطون تشيخوف" على المركز الأول بجائزة ساويرس 2010، كما حصلت روايته "رجوع الشيخ" على المركز الأول بجائزة ساويرس 2013، ووصلت إلى القائمة الطويلة بجائزة البوكر العربية.

الربيع العربي للنشر والتوزيع

غلاف : عبد الرحمن الصواف